بسم الله الرحمن الرحيم

الصَّرفة : عرض ونقد وتحليل

أيمن إبراهيم ريان

تلخيص:

سلك العلماء في بيان وجوه إعجاز القرآن مسالك عديدة، واتجهوا في البحث عنها وجهات مختلفة، وقرر جمهورهم أن القرآن الكريم معجز بذاته، لا لسبب خارج عنه، بينما قرر القائلون بالصرفة أن الإعجاز أمر خارج عن ذات القرآن، فكان هذا البحث لبيان مضمون القول بالصَّرفة، ودلالتها، وحجج القائلين بها وردود المعارضين لها .

تقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه المحكم المبين: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)** ﴾ [العنكبوت 50–51][1].

والصلاة والسلام على نبينا وقدوتنا سيد الخلق محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القائل: "**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات، ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله ألي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**"[2].

أما بعد:

لقد أنزل الله القرآن بالحق بيانا معجزا، ونعمة أتمها على الناس وحجة عليهم، به قامت حضارة الإسلام، فهو معجز حقا! وإعجازه كلمة مليئة، أوجز مضمون لها أنه لا يتأتى لأحد الإتيان بمثله أو ببعضه؛ وعلى أن القرآن أعلن هذه الحقيقة على الملأ في العهدين المكي والمدني على سواء، وتجاهلها المتجاهلون على حال من المكابرة الفارغة الرعناء، فإن الشواهد العملية على إعجازه كانت تواكب نزول هذا الكتاب منجما.

ويمكن أن يقرر بموضوعية خالصة أن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وأعداءه أجمعوا على حقيقة إعجازه، وهذا الإجماع أقوى دليل عملي: فالذين آمنوا به أسلموا له وعلموا أنه – وإن أنزل للبشر – ليس صنعة من بشر، والذين جحدوا به، وأنكروه تنزيلا، لم يُقدّموا على كثرتهم وطول باعهم في اللغة والفصاحة والثقافة الأدبية والإبداع فيما لديهم من أنواع الأدب دليلا عمليا، أو ظلا من دليل، على

---

[1] العنكبوت: 50–51.

[2] أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (4981)، وفي الاعتصام (7274) واللفظ له ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (152).

إمكان أن يأتوا بمثل القرآن أو بما هو قريب منه أو شبيه به، بل انسحبوا من ساح التحدي يغطون على هزيمتهم، أو إقرارهم بالعجز، بالتصايح والجلبة والغوغائية، وقد آثروا ذلك، مع ما في الانسحاب من العار والإقرار، على المغامرة والإقدام على المحاولة، سترا على عقولهم، وإبقاء على أنفسهم أن يفتضح باطلهم.

ولا يزال الإجماع على إعجاز القرآن منعقدا من المؤمنين به، ومن الكافرين به– شاء هؤلاء أم أبوا — ما دام التحدي قائما، وما دام العجز هو الردّ الوحيد.

وإن من المتسالم عليه بين أهل العلم؛ أن لكل عصر من الأعصار، ولكل مكان من هذه المعمورة حاجاته ومتطلباته، وبراهينه، ومن المعروف أن سائر العلوم تبدأ يسيرة، ثم تتطور على مبدأ الحاجة الزمانية والمكانية، وعلى مبدأ التراكم المعرفي، ومن الخطأ الفاحش أن ينسب كمال العلم لبداياته ويزعم أن العلم ينقص بعد ذلك! وهذا لا وجود له في أي ثقافة سوى ثقافتنا العربية وللأسف!

" كان المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومن بعده من الخلفاء الراشدين، ولا سيما زمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لا يطيلون النظر في دراسة مسائل الدين، ولا يثيرون قضاياه التي تبعث على الاختلاف في الرأي؛ كالقول بالجبر أو الاختيار، ومشاكل الصفات الإلهية والذات وذلك لضعف ثقافتهم في بادئ أمرهم[3]، وانعزالهم في جزيرتهم، وعزوفهم عن غيرهم من الأمم....

وكانوا ينظرون إلى القرآن نظرة تسليم ورضا على أنه كتابهم الديني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...

وهذه النظرة إلى القرآن هي التي توافق مقتضى حاله، فالقرآن هو الروح الذي يوجههم إلى مراتب الكمال في الدين والدنيا، ويأخذ بألبابهم، وهو مصدر ثقافتهم الأكبر..."[4].

وكل المسائل المتعلقة بعلوم القرآن بدأت يسيرة، ثم تطورت، حتى اكتمل بناؤها.

"ويتضح من تأمل الظاهرة التاريخية في مسيرة التأليف القرآني؛ أن التأليف في الإعجاز بدأ مجرد ردود على أسئلة مثارة تتعلق بكلمة أو خاطرة، أو فهم لآية معينة، وكان هذا اللون خاضعا لمنطق رد الفعل، بكل ما يحمله هذا المنطق من محدودية النظر، وتسامح التحديد الإصطلاحي"[5].

---

[3] لا أرى هذا التعبير لائقا بالصحابة رضوان الله عليهم، وإنما يحسن القول: لعدم شيوع هذه الأمور في عصرهم، وعدم اطلاعهم على الفلسفات التي تثير قضايا المغيبات.

[4] نعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، 35. مقتطفات بحروفها.

[5] يشم من هذه الجملة إعتراض على صنيع الراشدين في الشدة، ضد الذين يطعنون في الدين وهذا غريب! فالذين يطعنون في الإسلام من المسلمين يطبق عليهم أحكام الردة بمراحلها المعروفة!.

"وكانت حرية الرأي محدودة في زمن الراشدين والأمويين، والسيف مسلط على رؤوس المخالفين الذين يطعنون في الدين[6]، ولما انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين؛ زاد اختلاط الأعاجم بالعرب المسلمين، وكان أكثر الخلفاء العباسيين يتسامحون في الأمور الدينية، وفي كل شيء غيرها، إلا ما يتعلق بأمور السياسة والملك...وجدت جماعة من المفكرين الأحرار، قيل: إنهم كانوا يجتمعون معا، وينتقدون القرآن، أو يحاولون أن يجاروه بالنظم والأسلوب...وكان من أشرهم عبد الله بن المقفع، وبشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الحميد الكاتب، ووالبة ابن الحباب، وغيرهم...

والروايات التي تتهم هؤلاء الرجال تنتهي إلى القول بأنهم كفوا عن معارضة القرآن شعورا منهم بعجزهم[7]. هذا ما قاله بعض من أرخ لفكرة إعجاز القرآن الكريم.

والذي يراه الباحث من تاريخ الراشدين وغير الراشدين من الصحابة رضي الله عنهم؛ أن تناول الجيل الأول للشبهات التي كانت تطرح في الساحة العلمية؛ يختلف عن تناول الذين جاءوا بعدهم لتلك الشبهات ذاتها، وغيرها مما استجد.

فمسألة القدر — مثلا — طرحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان من المتصدرين لها رجل يدعى (صبيغ بن عسل) فكان يسأل الناس عنها، وأكثر الناس يسلمون تسليما فطريا، فربما كان لأسئلته، أو تساؤلاته آثار سلبية، في بيئة عربية منعزلة عن الفلسفات اليونانية والفارسية، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب، وكان أمير المؤمنين رضي الله عنه يومئذ، فسأله عن اسمه وما يثيره، فأخبره أنه يريد أن يعرف ما لا يعرفه، فظل يضربه على رأسه حتى أدماه، ثم نفاه إلى البصرة، وأمر بهجره، وعدم مجالسته، وكتب إلى واليه على البصرة أبي موسى الأشعري أن يحرمه من استحقاقه المادي (عطائه) فلم يزل صبيغ وضيعا في قومه بعد أن كان سيدا فيه[8].

وطرحت مسألة القدر ذاتها في عصر ابنه عبد الله بن عمر، فكان علاجه لها رسالة شفوية أرسل بها إلى طارحي المسألة، قال لحاملها: " إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني! والذي

---

[6] وهذه شر من سابقتها فلإسلام لا يعرف للمفكرين الأحرار وجودا في المجتمع المسلم على المفهوم الذي احترمه المؤلف المحترم! وإنما المجتمع المسلم فريقان :

- المسلمون : وعليهم التعرف إلى دينهم، وعدم المساس بقدسيته بأي حال !
- وغير المسلمين من أهل الذمة والأمان، وصدور أي انتقاص من أحدهم بالدين الإسلامي؛ ينقض عهده، ويهدد ذمته، ويصبح حربيا يحل دمه، فالأولى أن يسمى هؤلاء أشرار الفكر.

[7] **فكرة إعجاز القرآن**، 37–38.

[8] لقد حقق الحافظ ابن حجر في الإصابة (458/3) قصة صبيغ، وحدد الصحيح منها، وعزا كل رواية إلى مصدر تخريجها، والقدر الذي أوردته مما صححه الحافظ بن حجر.

يحلف به عبد الله بن عمر؛ لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا، فأنفقه؛ ما قبل الله منه، حتى يؤمن بالقدر"[9].

وطرحت هذه الفكرة على عهد الصحابة، وعولجت بغير هذا الطرح، كما طرحت وعولجت في مرحلة الصراع الفكري بين المدارس الكلامية على أنحاء أُخر، تختلف اختلافا جذريا عن علاج عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وغيرهما من علماء الجيل الأول ولكل جيل ثقافته ولكل عالم منهجه!؟

وتفسير علاج عمر وابنه عبد الله رضي الله عنهما في نظري القاصر أن الصحابة قسمان ولكل من هذين القسمين أعوان:

-**القسم الأول:** أناس استمعوا إلى كتاب الله فأسرهم بيانه، وسحرهم أسلوبه، وسمو معانيه، وعلموا أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لا يستطيعوا مثل هذا البيان، ولا ذاك المحتوى في مثل ذاك البيان؛ فصدقوه، وصدقه بتصديقه أقوام آخرون تبعا لهم، وتروي كتب الحديث والسيرة أن من هؤلاء عمر بن الخطاب وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ رضي الله عنه.

– **والقسم الثاني:** أناس أيقنوا بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فآمنوا بما اخبرهم به من نبوته ونزول جبريل بالقرآن عليه وتبع هؤلاء على تصديقهم أناس آخرون، وذكرت كتب السيرة من هؤلاء أبا بكر الصديق، وزيد بن حارثة، وعلي بن أبي طالب، وخديجة بنت خويلد، وسائر من آمن من بني هاشم.

وعمر بن الخطاب من كبار صحابة رسول الله وعلمائهم والذين دخلوا في الإسلام رغباً لا رهباً، ولا طمعاً، وكان رجال رعيته يقرون بأعلميته وعبقريته وسداد رأيه، وكان هذا كافيا ليتراجع أحدهم عن رأيه إلى رأي عمر إذا رأى رأيه على خلافه، والأمر ذاته يفسر بالنسبة لابنه عبد الله.

أما في عصر الصراع الفكري، فقد كان كثير من العلماء يرون إمامهم المتغلب غير شرعي وغير مفترض الطاعة، ويرى بعضهم انه خال من العلم، وبعض الخلفاء لم يكن على كبير دين! فلم يكن قرار الخليفة يورث قناعة لدى المتخالفين، وإنما الذي يورثها البحث والمناظرة والجدل فتلك التي يصدر عنها ما يرجح أحد القولين على الآخر بما يصدر عنها من أدلة وبراهين وحجج!

---

[9] طرف من حديث طويل فيه قصة، أخرجه مسلم من حديث ابن عمر في **كتاب الإيمان**، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (1).

وعصرنا هذا الذي نعيش تتعالى فيه الأصوات ضد الإسلام ويكثر الشانئون والحاقدون الذين يحاولون الحد من انتشاره، ويتطاولون عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم، بما في ذلك شن الحروب، للحيلولة دون أن تأتي الصحوة الإسلامية أكلها.

فيتعين على المفكرين والعلماء والباحثين أن تكون الطروحات عميقة حكيمة مؤيدة بالبراهين، مستفيدين من جميع العلوم الحديثة، لإظهار عظمة الإسلام وتفوقه على سائر الأديان، والمذاهب المعاصرة مع ضرورة الفصل بين سمو الإسلام، وواقع المسلمين.

أهمية الموضوع

إن مسألة الإعجاز القرآني؛ هي السبيل الأعظم الذي يبرز تفوق الإسلام وأحقيته، وربانية مصدره، ومن ثم ضرورة الاعتقاد والعمل بما فيه.

وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التي تبارت فيها الفحول، وتصاولت في رحابها الوسيعة القروم، وبدأ الحديث عن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سور القرآن، فبرز قول غريب في البصرة التي كانت تموج بالتيارات الفكرية المختلفة، مفاده : أن إعجاز القرآن ليس لشيء ذاتي فيه، وإنما هو لصرف الله تفكير العرب عن معارضته، وهو القول الذي نُسب فيما بعد : لإبراهيم بن سيار النظام، أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وعرف هذا القول فيما بعد بالصرفة، عند ذلك عكف العلماء على دراسة كتاب الله بصورة علمية منظمة لاستجلاء مواطن الجمال في تعبيره الفني، والأسرار البلاغية في بيانه المعجز، فكان نتيجة لذلك مؤلفات في الإعجاز لها مكانتها، كما كان من ذلك ثروة كبيرة من الأقوال المبسوطة في إعجاز القرآن تضمنتها كتب علم الكلام وعلم التفسير . ولا أريد في هذا البحث سرد وجوه إعجاز القرآن التي قال بها العلماء، وإنما سألقي الضوء على قول ظنه بعض العلماء وجها من وجوه الإعجاز ، وهويقينا ليس منها، وإن كان له كبير الأثر في نشأة علوم البلاغة، وفي تأليف كتبها فيما بعد .

بيد أن مسألة (الصرفة) ليست ذات تعلق كبير بواقعنا، لأن أكثر المسلمين لم يدركوا حقيقة إعجاز القرآن البياني، حتى تتدخل الصرفة في إقامة الحجة، أو لا تتدخل!

فالمسألة دراسة تاريخية ترصد ما قام به علماؤنا السابقون تجاه الموافقة عن الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم.

على أن معطيات هذا العصر يمكن أن يستفاد منها أدلة إضافية تؤكد الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم في غير مسألة الإعجاز البياني التي قل ما يدركه أمثالي!.

سبب اختيار الموضوع

إن مسألة (الصرفة) تصنف في دائرة (وجود إعجاز القرآن) بوجه عام؛ لذا فإن هذا البحث الوجيز ينبغي أن يشير إشارات سريعة إلى:

-مفهوم الإعجاز، ووجوهه، وتحديد موضع (الصرفة) منها.

- تحليل مفهوم (الصرفة) واستعراض تطورها التاريخي وأدلة القائلين بها عليها.

-عرض أقوال العلماء الرافضين لفكرة الصرفة، وسياقة أبرز أدلتهم على نقضها.

- الموازنة بين آراء النافين والمثبتين ومحاولة النظر في أدلة الفريقين للترجيح.

الدراسات السابقة

لم أقف على مؤلف أفرد الصرفة في كتاب مستقل، وإنما بحثت الصرفة ضمن كتب إعجاز القرآن الكريم في القديم والحديث، وقد أشرت إلى أكثرها ضمن بحثي هذا، ورأيت من المناسب إفراد هذا الموضوع في بحث مستقل من أجل تحقيق مسائله، وتبيين وجه الحق فيها.

خطة البحث

لقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة وستة مطالب وخاتمة:

المطلب الأول: تحدثت فيه عن دلالة مصطلح إعجاز القرآن.

المطلب الثاني: بينت فيه معنى الصرفة وموقعها من إعجاز القرآن.

المطلب الثالث: تكلمت فيه عن مذاهب اللعلماء في الصرفة.

المطلب الرابع: عرضت أقوال العلماء الذين نسب إليهم القول بالصرفة.

المطلب الخامس: تحدثت فيه عن مذاهب العلماء في نقض فكرة الصرفة.

المطلب السادس: أوردت فيه ردود العلماء على مذهب الصرفة.

وخاتمة البحث: أوضحت فيها أبرز ما توصلت إليه من ورائه، والله هو المعين والهادي، ونعم الوكيل.

المطلب الأول

دلالة مصطلح إعجاز القرآن

المسألة الأول: الإعجاز في لغة العرب

كانت العربية هي الوعاء الذي حوى كلمات القرآن الكريم في زمن التنـزيل، ثم غدا القرآن الكريم هو الوعاء الكريم الذي حوى أصح وأفصح وأبلغ مناجم التعبير عند العرب، فإذا ما أراد العرب البحث عن كلمة أو تركيب أو أسلوب مما له صلة بالعربية؛ ذهبوا يبحثون؛ عن مصداقيتة في بيان القرآن الكريم؛ لاتفاق أساطين العربية على أن القران الكريم قمة البيان العربي مفردات وتراكيب وأساليب تعبير.

ولم ترد كلمة إعجاز في آيات القرآن الكريم، ووردت بعض الاشتقاقات الواضحة لمعناها، من مثل قوله تعالى حكاية عن وفد الجن الذين استمعوا إلى القران الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً**" [الجن: 12]. وقوله عز وجل: " **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً** "[فاطر: 44]. وقوله الكريم: " **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ** "[الأنفال: 59]. وقوله عز من قائل: " **وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** " [الحج: 51]. وقد وردت الكلمة "موطن الشاهد" (معاجزين) في سورة (سبأ: 5، 38) وقوله العظيم: " **وَمَن لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**"[الأحقاف: 32].، وقوله جل جلاله: " **فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ**"[التوبة: 2] وقوله تقدست ذاته: " **وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ** "[يونس: 53]. وقد وردت جملة "**وما أنتم بمعجزين**" في سورة الأنعام: 134، وهود: 33، العنكبوت: 22، والشورى: 31.

ووردت جملة "**ما هم بمعجزين**" في سورتي النحل: 46، والزمر: 51.

وقوله تقدست صفاته: "**أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ**" [هود: 20] وقوله سبحانه: "**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ**" [النور: 57] وجاء قوله الكريم: "**تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ** "[القمر: 20] وقوله الأجل: " **فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**"[الحاقة: 7] بيانا لحالة النخل في مواجهة الريح.

قال الراغب: " عَجُزُ الإنسان: مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره، قال تعالى: (**كأنهم أعجاز نخل منقعر**) والعجز: أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي: مؤخره... وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى على لسان ابن آدم الأول: " أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب" وأعجزت فلانا، وعجزته، وعاجزته؛ جعلته عاجزاً"[10].

ويلاحظ أن جميع هذه الآيات الكريمة تؤكد أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي جميعها بطريقة التعريض: تبكيت واستخفاف وتوبيخ للكافرين والعصاة الذين يغفلون عن قدرة الله تعالى عليهم وعلى جميع من في السماوات والأرض الواردة في مثل قوله جلت قدرته: "**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**"[البقرة: 20][11].

---

[10] **المفردات** (عجز)، 361.

[11] جاء وصف الله بأنه قدير في عشرات الآيات القرآنية فانظر المعجم المفهرس (قدير)، 682–683.

فصيغة (معجز) الواردة في الآيات الكريمة السابقة هي: اسم فاعل من الرباعي المهموز (أعجـز) ومـصدره (إعجاز).

فالإعجاز في اللغة: القدرة على التعجيز وهو ظهور الضعف على المعجَّز[12].

المسألة الثانية: الإعجاز في الاصطلاح

إذا أطلقت كلمة "الاصطلاح" فإنها تنصرف إلى اصطلاح أهل الاختصاص، وهم في مثل بحثنا علماء التفسير وعلوم القرآن!

لكن لما كان "إعجاز القرآن الكريم" علما علـى دلالـة مـصدره الربـاني، فقـد تناولـه علمـاء اختـصاصات متعددة من علماء الكلام والفلسفة وعلماء التفسير، وتاريخ القرآن وعلومه، وعلوم البلاغة، والأدب والنقد. بل دخل في كثير من دراسات علوم معاصرة من طب، وهندسة، وفلك، وقوانين كونية من مثـل: قـانون خلق الانسان، وقوانين المجرات، وقانون الجاذبية، وقانون الضغط الجوي، وغير ذلك مما هـو مبثـوث في مصادر الدراسات والموسوعات العلمية المختصة.

وأثرا من آثار ذلك غـدا عنـدنا: الإعجـاز البيـاني، والإعجـاز التربـوي، والإعجـاز النفـسي، والإعجـاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العددي للقرآن الكريم.

ولم يتكلم المتقدمون على معنى الإعجاز في الاصطلاح وان أوضحوا المراد منه في ما يخص القرآن الكريم.

فالقاضي عبد الجبار بن احمد الهمداني المقزلي (ت:215هـ) يقول: "معنى قولنا في القرآن: انه معجز؛ انه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختص به[13].

وقال الشريف الجرجاني: "الإعجاز في الكلام هو أن يؤدى المعنى بطريق هو ابلغ من جميع ما عداه من الطرق" وقال أيضا: "حد الإعجاز: هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجـزهم عن معارضتهم"[14].

وأما المعاصرون فقد تقاربت تعريفاتهم لمصطلح (الإعجاز) القرآني وعرض عدد من هذه التعريفـات يوضـح المراد.

---

[12] **القاموس**: 663، **والوسيط**،615 (عجز) مع ضرورة الاشارة الى ان المفردات والقاموس والوسيط لم تذكر كلمة (اعجاز) في تصريفات (عجز)!.

[13] **المغني في ابواب التوحيد والعدل**، 226/16.

[14] **التعريفات**، 35 رقم 234، 88 رقم 694. وانظر: صلاح الخالدي، **البيان في اعجاز القرآن**، 32.

تعريف الشيخ الزرقاني: "إعجاز القرآن: مركب اضافي، معناه بحسب اصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به"[15].

تعريف الدكتور فضل حسن عباس: "معنى إعجاز القرآن: عجز الناس عن الإتيان بمثله"[16].

تعريف الدكتور صلاح الخالدي: "إعجاز القرآن الكريم: هو عجز العرب المعاصرين لنزول القرآن (الذين كفروا به) عن معارضته مع توفر ملكتهم البيانية، وموهبتهم البلاغية، وقيام الداعي على المعارضة، ووجود الباعث –وهو استمرار التحدي– واستمرار هذا العجز من الكافرين جميعا على اختلاف الأماكن والأقوام حتى قيام الساعة.

ثم عاد الدكتور الخالدي فعرف إعجاز القرآن بتعريف أوجز من سابقه، فقال: " معنى إعجاز القرآن: عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، هو استمرار تحديهم وتقرير عجزهم عن ذلك". قال: " وإذا كان الكافرون عاجزين عن معارضة القرآن، فان القرآن معجز لهم وتحقق عجزهم عن معارضة إعجازه لهم"[17].

وقد أعجب الدكتور الخالدي بتعريف العلامة الأديب مصطفى صادق الرافعي للإعجاز فآثرت الختام به.

قال الرافعي: "الإعجاز شيئان:

– ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة، ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته.

– ثم استمرار هذا الضعف، على تراخي الزمن وتقدمه.

فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغ ما بلغت"[18].

وقد كتب من المعاصرين مباحث علمية ودراسات في (إعجاز القرآن) فعرفوا المعجزة ولم يعرفوا إعجاز القرآن وسبب ذلك في تقديري أن معنى الإعجاز مندرج في اصطلاح المعجزة[19] ويلاحظ على هذه التعريفات جميعها التركيز على فكرة التحدي والعجز عن تقبله.

---

[15] الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، 573.

[16] **إعجاز القرآن الكريم**، 28.

[17] **البيان في إعجاز القرآن**، 33.

[18] إعجاز القرآن للرافعي: ص139.

[19] ينظر: العلامة أبو زهرة، **المعجزة القرآنية**، 47 ومحمد عبد الله دراز، **النبأ العظيم**، 80، ونعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، 7، وصبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، 313، واحمد سيد محمد عمار، **نظرية الإعجاز القرآني**، 28، ومصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، وغير ذلك من المصنفات ذات الصلة.

ويظهر لي أن تعريف الشريف الجرجاني هو أقرب هذه التعريفات الى الحدود الاصطلاحية وأن تعريف الدكتور الخالدي هو تعريف بالرسم الناقص![20].

بيد أن جميع هذه التعريفات أغفلت ظهور كبرياء الخطاب الإلهي الواضح وقوة الطابع الرباني ينتظم جميع القرآن الكريم في مفرداته وتراكيبه وآياته وسوره[21] وهما نقطتان: أولاهما أكد عليه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وأكد على الثانية سيد قطب في نظريته الإعجازية الكاملة المتفرغة، ولا بد منهما في تقديري؛ لأنهما من أعظم مظاهر الإعجاز القرآني.

المطلب الثاني

الصرفة وموقعها من إعجاز القرآن

المسألة الأولى: الصرفة في اللغة والإصطلاح

أصل الصرف –في ما نحن بصدده– الردّ والكفّ، وهو بفتح الصاد وسكون الراء، وتصريف الرياح: تحويلها من وجهة إلى أخرى. والصِّرفة –بكسر الصاد– إحدى منازل القمر ويبدو أن الذين ضبطوها بالفتح بنوها على اسم المرّة، والذين ضبطوها بالكسر بنوها على الهيئة، أما ضبطها بضم الصاد، فلا اعرف وجهه[22].

فالصرف والصرفة في اللغة: الكف والمنع والتحويل.

وفي اصطلاح علماء الكلام هي: (صرف الله العرب عن معارضة القرآن الكريم، مع قدرتهم عليها) (فكان هذا الصرف خارقاً للعادة وبهذا يكون هذا الصرف هو المعجز لا القرآن نفسه)[23].

المسألة الثانية: موقع مسألة (الصَّرفة) من إعجاز القرآن الكريم

غدا مصطلح "إعجاز القرآن الكريم" علما مفردا، وعلما على قضية يدرس فيها معاني الإعجاز، وموقعه من المعجزة، ومظاهر الإعجاز القرآني، وأوجه الإعجاز، وغير ذلك.

---

[20] الرسم الناقص: هو التعريف بمعرفيات تختص جملتها بحقيقة واحدة، كتعريف الإنسان بانه يمشي على قدمية، ويضرب بيديه، وانه ظاهر البشرة، مستقيم القامة، ضحاك الوجه. انظر الجرجاني، **تعريفات** (الرسم الناقص)، 114 رقم 901.

[21] نعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، 429، 444.

[22] الراغب، **المفردات**، 313، **المصباح المنير**، 129، **القاموس المحيط**، 1068، السمين، **عمدة الحفاظ**، 292. كل في (صرف) وانظر ضبطها بالضم في: الخالدي، **البيان**، 82.

[23] نعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، 54.

ومسألة (الصرفة) عندما تذكر؛ يراد أنها وجه من أوجه الإعجاز القرآني، عند القائلين به، أو أنها الوجه الوحيد عند الذين ينفون الإعجاز الذاتي في القرآن الكريم، ويثبتون الصَرفة[24].

المسألة الثالثة: أبعاد نظرية الصَّرفة في دائرة الإعجاز

نُسب إلى بعض العلماء أنهم قالوا بالصرفة وحدها على أنها الوجه الوحيد المعجز.

ونُسب إلى بعضهم أنها أحد أوجه الإعجاز ونسب إلى آخرين انهم نفوا حصول الصرفة أصلا، ونفى آخرون إعجاز القرآن من رأسه، وهؤلاء طائفة قليلون![25]

وقبل الانطلاق وراء آراء العلماء في هذه المسألة؛ يحسن أن نوضح بإيجاز المراد من ذهاب بعض العلماء إلى القول بالصرفة.

أورد يحيى بن حمزة العلوي في كتابه (الطراز) ثلاثة مفاهيم للصرفة تندرج تحت أقوال القائلين بها:

الاحتمال الأول: أن الله سلب دواعي العرب إلى المعارضة، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة، مع التقريع بالعجز، والتكليف بالانقياد، ومخالفة الأهواء.

الاحتمال الثاني: أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها للإتيان بما يشاكل القرآن، وهذا الاحتمال أعم أن تكون حاصلة لهم فأزيلت عنهم، أو كانت غير حاصلة، لكن الله صرف دواعيهم عند تحصيلها.

الاحتمال الثالث: أن الله تعالى ألجأهم بالقسر عن المعارضة، مع كونهم قادرين، وسلب قواهم عن ذلك[26].

وقد ذكر صاحب الطراز الاحتمال الثالث ولم ينسبه إلى أحد، وقال نعيم الحمصي: "لا ادري من أين أتى به!"[27]

خطورة القول بالصرفة عند نفاتها:

كل الذين يرفضون القول بالصرفة وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، أو الوجه الوحيد للإعجاز فانهم يرفضون ذلك؛ لأنه بلازمه ينسب العبث إلى الله تعالى من جهة، ولأن الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم هو

---

[24] **ن.م.**، 54، 84 **والبيان في إعجاز القرآن**، 282.

[25] الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، 81. وسيأتي ذكر هؤلاء العلماء بالتفصيل في المطلب الثالث الصفحة 8.

[26] الخالدي، **بيان إعجاز القرآن**، 82،83 والحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، 130–136 نقلا عن (الطراز) 370/3 فما بعد.

[27] **فكرة إعجاز القرآن**، 133.

سر إعجازه الخالد، فإذا جردناه من هذا السر الذاتي؛ ربما جاء من يثير شكوك جديدة على القرآن الكريم، والنبي، والرسالة الخالدة.[28]

المطلب الثالث

مذاهب العلماء في الصرفة

ذكر العلماء من الباحثين أن القول بالصرفة هو الذي حرّك همم العلماء للبحث عن جوانب إعجاز القرآن الكريم، فنتج من وراء ذلك مباحث النظم والأسلوب والبلاغة القرآنية؛ ردّاً على القائلين بالصرفة المناقضة تماما لقول الاعجاز القرآني الذاتي[29]. وقد قام عدد من الباحثين بالتتبع التاريخي لمسألة الصَّرفة.

والذي يخصّ بحثي الوجيز هذا هو جمع أسماء العلماء الذين نسب إليهم القول بالصرفة، وتوضيح مذاهبهم فيها، ومناقشة العلماء لهم في ذلك، وإضافة ما يمكن إضافته في هذا السبل من توضيح، أو تحرير، أو تصحيح.

المسألة الأولى: نشأة القول بالصرفة

أثبتت الدراسات أنَّ الصرفة لم تكن وليدة البيئة العربية؛ بل هي غريبة عنها من مخلفات الهنود، فقد ورد أن البراهمة أطلقوا كتابهم " الفيدا " وهو الذي يشمل مجموعة من الأشعار ليس في كلام النّاس ما يماثلها في زعمهم، ويقول علماؤهم: إن البشر يعجزون أن يأتوا بمثلها لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها[30].

"ويرى أكثر الباحثين: قُدامى ومحدثين، أنّ القول بالصرفة نما وترعرع في بيئة المعتزلة، حيث أن النظّام –وهو رأس المعتزلة– أوّل من نادى به، وأشاعه في المجتمع الإسلامي، بينما ينفي فريق منهم نسبة هذا القول إلى المعتزلة بل إلى النظام نفسه. وتردد فريق ثالث في نسبته إلى المعتزلة، فجاءت أقوالهم مضطربة، وآراؤهم متناقضة"[31].

---

[28] **نظرية إعجاز القرآن**، 74–75.

[29] انظر على سبيل المثال: مصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، 46، أحمد سيد محمد عمار، **نظرية الإعجاز القرآني**، 43–44.

[30] أحمد جمال العمري، **المباحث البلاغية**، نقلا عن: البيروني، **ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، 27.

[31] **نظرية الإعجاز القرآني**، 43–44.

ثم ذكر الدكتور عمّار مذاهب العلماء الثلاثة وأبرز القائلين بها، مما سوف يأتي ذكره وأعطى رأيه في تلك المسألة **فقال**: " الرأي عندي أن الحديث في الأعجاز على العموم، نما وازدهر في بيئة المتكلمين — معتزلة وأشاعرة– وإن بدأ في بيئة الاعتزال وكان لرأي النظّام في الصرفة صدى واسع، أدخل قضية الإعجاز في طور جديد بما أثار من جدل في المجتمع الإسلامي عامة، وفي أوساط العلماء خاصة...

وعلى أيّ حال، فإن القول بالصرفة نما واستوى على سوقه في بيئة المعتزلة وقد قال به رأسهم النظّام... ولكن من الظلم للمعتزلة أن ينسب إليهم هذا القول بإطلاق حيث إنهم لم يُجمعوا عليه... بل أنكره كثير منهم، وكفر القائلين به"[32].

وسوف تأتي مناقشة الدكتور أحمد السيد عمار فيما ذهب إليه من الجزم بنسبة هذا القول للنظام.

المسألة الثانية: العلماء الذين نسب إليهم القول بالصّرفة

لقد نسب بعض المصنفين في إعجاز القرآن مذهب الصَّرفة إلى عدد غير قليل من علماء أهل السنة والمعتزلة والشيعة. وسوف أسرد أسماءهم تمهيداً لعرض آرائهم ثم مناقشتها:

1- واصل بن عطاء البصري المعتزلي (ت 131 هـ)[33].

2- إبراهيم بن سيار البصري أبو إسحاق المعتزلي (ت سنة بضع وعشرين ومائتين)[34].

3- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري المتكلم المعتزلي (ت 255 هـ).

4- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني المعتزلي (ت 384 أو 386 هـ).

5- الشريف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين بن موسى الحسيني الكاظمي الشيعي (ت 436 هـ).

6- الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي (ت 450 هـ).

7- الإمام أبو محمد علي بن أحمد الأموي — مولاهم– المعروف بابن حزم الظاهري (ت 456 هـ).

8- الأديب الشاعر أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي المعتزلي (ت 466 هـ).

9- إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي (ت 478 هـ).

10- حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي (ت 505 هـ).

11- الأصولي المتكلم المفسّر فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن القرشي اليتمي الرازي الشافعي (ت 606 هـ).

---

[32] **ن.م.**، 48–49 مقتطفات.

[33] انفرد بذكره الدكتور مصطفى مسلم في **مباحثه**، 46.

[34] **كشف الظنون**، 1394 **وفكرة إعجاز القرآن**، 801.

12– الفقيه المفسر محيي الدين أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الشاطي المالكي المعروف بابن سراقة (ت 662 هـ).

13– الأصولي المتكلم نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي الشيعي (ت672 هـ).

14– الأصولي الفقيه المفسّر أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي المالكي (ت 741 هـ).

15– الأصولي المتفنن أبو الثناء شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني الشافعي (ت 749 هـ).

16– شيخ الإسلام شمس الدين أحمد بن سليمان التركي المعروف بابن كمال باشا الحنفي (ت 940 هـ).

17– الفقيه المفسر شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي المصري (ت 977 هـ).

هؤلاء سبعة عشر عالماً من علماء المسلمين نُسب إليهم القول بالصّرفة.

وإن لمحة عجلى إلى هذه الإحصائية توضح أن بداية القول بالصَّرفة كان على يد المعتزلة ولم تظهر هذه الإحصائية أن أحداً من علماء أهل السنة قال بالصّرفة قبل منتصف القرن الخامس الهجري، حيث قال به من الشافعية الإمام الماوردي (ت 450 هـ) ومن الظاهرية ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ).

وتبرز هذه الإحصائية أن ستة من علماء الشافعية قالوا بالصرفة وجهاً من وجوه الإعجاز أو على سبيل التنزل والجدال، وقال بها حنفّي واحد، ومالكيّان، وسوف استعرض خلاصة آرائهم على التو.

المطلب الرابع:

عرض أقوال العلماء الذين نسب إليهم القول بالصرفة

المسألة الأولى: واصل بن عطاء البصري المعتزلي (ت 131 هـ) والقول بالصرفة

انفرد الدكتور مصطفى مسلم في — حدود علمي– عندما نسب القول بالصرفة إلى واصل بن عطاء، وجعل أوّل من قال بها، مع أن المشهور عند العلماء أن النظّام هو أول من نسب إليه القول بالصرفة.

قال: " لم يبرز مصطلح إعجاز القرآن على الساحة إلا بعد أن نقل عن واصل ابن عطاء شيخ المعتزلة في البصرة قولٌ غريب وهو: أن إعجاز القرآن ليش بشيء ذاتيّ فيه، وإنما هو بصرف الله تفكير الناس عن

معارضته، وهو القول الذي تبناه فيما بعد إبراهيم بن سيّار النظّام المتوفي سنة (231 هـ) أحد شيوخ المعتزلة في البصرة وعرف هذا القول فيما بعد بالصرفة"[35].

قلت: لا مانع من القول أن واصلاً هو أول من قال بالصرفة، لكننا نحتاج إلى مصدر موثوق نسب ذلك إليه، والدكتور مسلم، لم يوثّق هذا القول ولم ينسبه.

المسألة الثانية: النظّام المعتزلي (توفي سنة بضع وعشرين) والقول بالصرفة

نسب أولية القول بالصرفة، أو أولية إظهار القول بها إلى النظام أكثرُ من تكلّم على وجوه إعجاز القرآن الكريم [36]. وإذا كان لم يصلنا شيء من كتاب النظّام التي تثبت مذهبه في هذا الرأي أو تنفيه، فإنّ كتب تلامذته وأهل مذهبه هي التي يتعين الرجوع إليها، لعدم تهمتهم في ذلك.

ولا حرج بعد ذلك من تتبع آثار هذا القول في كتب الفرق الإسلامية الأخرى غير المعتزلة.

يشرح الجاحظ – تلميذ النظّام– سبب تأليف كتابه (نظم القرآن) ويبين انه لم يترك فيه (مسألة لرافضي، ولا لحديثي، لا لحشوي، ولا لكافر مبادٍ، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظّام، ولمن نجم بعد النظّام، ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجّة، وأنه تنزيل وليس ببرهان)[37].

وقال أبو القاسم البلخي في الانتصار: (الحجة في القرآن عند النظّام إنما هي ما فيه من الغيوب لا النظم والتأليف، ولأن النظم مقدور عليه، لولا أن الله منع منه)[38].

"وهذا قول صريح يؤكد أن القول بالصرفة هو قول النظّام على الحقيقة، وليس مدسوساً عليه"[39].

---

[35] **مباحث في إعجاز القرآن**، 46. وتحديده وفاة النظام بهذا العام خطأ ما دام خِلواً عن المصدر، لأن الحافظ ابن حجر نص في **لسان الميزان**، 67/1 على أن وفاته سنة بضع وعشرين، وما زعمه نعيم الحمصي في كتابه **فكرة إعجاز القرآن**، 54 من أن وفاة النظّام (220 هـ) خطأ أيضاً.

[36] الرازي، **نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز**، 78، الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، 104/2، **الإتقان في علوم القرآن**، 255/2، أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، 59، الزرقاني، **مناهل العرفان**، 636، محمد عبد الله دراز، **النبأ العظيم**، 86، نعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، 54، أحمد مطلوب، **معجم المصطلحات البلاغية**، 146، صلاح الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، 82، الخالدي، **إعجاز القرآن البياني**، 83، فضل حسن عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، 38، مصطفى مسلم، **مباحث في اعجاز القرآن**، 59، أحمد سيد عمار، **نظرية الإعجاز القرآني**، 44، غسان حمدون، كتاب الله **في إعجازه يتجلّى**، 189، وغير هؤلاء.

[37] الجاحظ، حجج النبوة (ضمن مجموعة **رسائل الجاحظ**)، 148.

[38] البلخي، **فضل الاعتزال**، 70.

[39] سيد عمار، **نظرية الإعجاز في القرآن**، 51.

ويقول أبو الحسن الأشعري في مقالاته :(قال النظّام: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم؛ فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم)[40].

وقال عبد القاهر البغدادي في الفرق وهو يعدد فضائح النظّام — في نظره– :(الفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه؛ قوله: إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليست بمعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوّة، وإنما وجه الدلالة على صدقه ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف)[41].

وقال الشهرستاني في الملل:(قوله – يعني النظّام – في إعجاز القرآن: انه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرفي الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاّهم؛ لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً)[42].

"فهذه الأقوال وغيرها التي تنسب القول بالصّرفة إلى النظّام، هي التي جعلت الباحثين ينسبون هذا القول إلى المعتزلة على العموم والإطلاق"[43].

قلت: إن كلام أبي الحسن الأشعري، وأبي منصور البغدادي، وأبي القاسم البلخي، والشهرستاني، صريح في نسبة القول بالصّرفة إلى أبي اسحاق النظّام لكن كلام الجاحظ صريح الدلالة على أن أصحاب النظّام، ومن نجم بعد النظّام هم الذين يقولون :" إن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وانه تنزيل، وليس ببرهان" يعني على نبوّة النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن أبا القاسم عبيد الله بن أحمد الكعبي المعتزلي متقدّم الوفاة (ت 319هـ) كتب في نصرة الاعتزال، وهو من علمائهم، وليس من المعقول ألا يفهم كلام النظّام[44].

ويحسن أن أثير نقطة وقفت عليها، ولم أجد من الكاتبين في إعجاز القرآن من أشار إليها، عسى أن تُسهم في توضيح رأي النظّام في الصرفة.

---

[40] الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، 296/1.

[41] البغدادي، **الفرق بين الفرق**، 128.

[42] الشهرستاني، **الملل والنحل**، 56/1.

[43] **نظرية إعجاز القرآن**، 44.

[44] انظر بعض مؤلفاته في **الفهرست**، 198 و**كشف الظنون**، 200، 441.

في مقدمة كتاب تأويل مختلف الحديث ذهب ابن قتيبة يعدّد مخازي المعتزلة وتناقضاتهم ويعدد مآثر أهل الأثر، ويذكر أبرز أعلامهم من أمثال: سفيان الثوري، ومالك بن أنس، والأوزاعي... إلى أن قال: (فإذا نحن أتينا أصحاب الكلام، لما يزعمون أنهم عليه من معرفة القياس وحسن النظر وكمال الأداء، وأردنا أن نتعلق بشيء من مذاهبهم، ونعتقد شيئا من نحلهم؛ وجدنا النظّام شاطراً من الشطّار[45] يغدو على سُكر ويروح على سُكر، ويبيت على جرائرها، ويدخل في الأدناس، ويرتكب الفواحش والشائنات... ثم ذهب ابن قتيبة يعدد من مخالفاته علماء الأمّة، واستهانته بمذاهب الصحابة وأقوالهم رضي الله عنهم، إلى أن قال: (ثم جحد –يعني عبد الله بن مسعود– من كتاب الله تعالى سورتين، فهبه لم يشهد قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهما، فهلاّ استدل بعجيب تأليفهما، وأنهما على نظم سائر القرآن المعجز للبلغاء أن ينظموا نظمه وأن يحسنوا مثل تأليفه؟)[46].

ولم يشر ابن قتيبة الى أن النظّام يقول بالصّرفة، ولو كان لديه عنه شيء من ذلك؛ لسارع به! بل إنه حين دافع عن ابن مسعود في إنكاره المعوّذتين قال: (وطعنه عليه لجحده سورتين من القرآن العظيم – يعني المعوذتين– فإن لابن مسعود في ذلك سبباً... وسببه انه كان يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعوّذ بهما الحسن والحسين، ويعوّذ غيرهما، كما كان يعوذهما بـ (أعوذ بكلمات الله التامة) فظن انهما ليستا من القرآن، فلم يثبتهما في مصحفه؛ وبنحو هذا السبب أثبت أبيّ بن كعب في مصحفه افتتاح دعاء القنوت، وجعله سورتين؛ لأنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهما في الصلاة دعاءً دائماً؛ فظن انه من القرآن)[47].

ولقد وصف ابن قتيبة النظّام بكل موبقة، لكنه لم ينسب إليه القول بالصّرفة، بل نقل عنه نقيضها تماماً، فهل تسعف هذه الكلمة في مزيد بحث حيال نسبة الصرفة إلى النظّام؟

وحين نثير مثل هذه الإشكالية؛ لا يقصد التشكيك فيما نقله علماؤنا الكرام ونسبوه إليه، وإنما يقصد ضرورة زيادة التثبّت، وخاصة في أمثال النظّام الذي ضاعت كتبه، ورماه خصومه حتى بالزندقة والكفر!.

وانظر إلى ظهور ذلك في هذا النص الذي قاله البلخي: (ولأن النظم مقدور عليه، لولا أن الله منع منه) كيف جعله البغدادي: (فأما نظم القرآن وحسن تأليفه، فإن العباد كانوا قادرين على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف!). وسوف يأتي مزيد بيان في المسألة التالية.

---

[45] الشاطر: من أعيا أهله خبثاً، قال في **القاموس** (الشَّطر)، 533.

[46] ابن قتيبة، **تأويل مختلف الحديث**، 18.

[47] ن.م.، 21.

المسألة الثالثة: تبرئة النظّام من القول بالصرفة

تقدم في طليعة هذا المطلب أنّ العلماء قد اختلفوا في صحة نسبة هذا القول إلى المعتزلة عموماً، وإلى النظام خصوصاً، وقد رأيت من المناسب هنا عرض بعض أقوال العلماء الذين برّأوا النظّام من تبعة هذا القول، أو استبعدوا صحة نسبته إليه، وذكر أبرز أدلتهم على ذلك.

قال الشيخ الزرقاني بعد عرضه مذهب الصّرفة ومناقشته وردّه: " إنـي لأعجـب مـن القـول بالـصرفة في ذاته، ثم ليشتد عجبي وأسفي حين ينـسب إلى ثلاثـة مـن علمـاء المـسلمين الـذين نرجـوهم للـدفاع عـن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا مثل هذه الشبهات في إعجاز القرآن!

على أنني أشكّ كثيرا في نسبة هذه الآراء إلى أعلامٍ من العلماء، ويبدو لي أن الطعن في نسبتها إليهم، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم؛ أقرب إلى العقول وأقوى في الدليل؛ لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية، وعلم هؤلاء من ناحية قرنيتان مانعتان من صحة هذا الرأي الآثم إليهم!"[48].

وقال الدكتور محمد محمد أبو موسى مبرئاً النظّام من القـول بالـصّرفة: " كـان مـن بلغـاء زمانـه، حـسن المقالة، رطب اللسان، سريع الخاطر، دقيق النظر، جيّد القياس... ومثـل هـذا البليـغ المـتمكن، الـذي عاش في القرن الثاني الهجري، والعربية باقية حرة خالصة في أفواه الأعراب؛ لا يغيب عنه هـذا الفـرق الغائب بين القرآن والناس"[49].

وقد رفض قول الشيخ الزرقاني، والدكتور أبو موسى بـشدّة وحـدّة الـدكتور الـسيد عمّـار، وذهـب إلى أن ثبوت القول بالصّرفة عن النظّام قد حصل بالدليل القاطع الذي لا يقبل الشك[50].

ونحن إذا كنّا موضوعيّين في البحث العلمي، فيجب أن نتجرّد عن العصبية المذهبية وعـن الهـوى، وألا نقبل كلام الخصم في خصمه مهما تجرّد، ونناقش الأقوال القريبة العهد من القول المدسوس؛ لان التتبـع أوصلنا إلى أن المتأخر ينقل عن المتقدّم من غير تمحيص غالباً.

ونحن إذا عدنا إلى النصوص التي نقلناها سابقاً، والتي استدل بها الدكتور السيد عمّار على أنها الـدليل القاطع عن أنّ النظّام يقول بالصّرفة؛ فسوف نجد ما يأتي:

1- ليس في كلام الجاحظ تلميذ النظّام ما يـشير إلى أن النظـام يقـول بالـصّرفة، والـذي فيـه أن تلاميـذ النظّام، ومن جاء بعده هم الذين قالوا بذلك.

---

[48] **مناهل العرفان**، 639.

[49] أبو موسى، **الإعجاز القرآني**، 356 نقلاً عن: عمّار، **نظرية الإعجاز القرآني**، 53.

[50] **نظرية إعجاز القرآن**، 52.

2- وأما ما نسبه أبو القاسم البلخي في كتابه فضل الاعتزال إلى النظّام، وهو أوّل كتاب معتزلي ينسب هذا القول إليه صراحة فيما يبدو، فيمكن فهمه على أن المقصود هو التأكيد على الجانب الغيبي، وأن جانب النظم قد كان يُقدر عليه لولا أن منع الله منه بضابط الفروق الهائلة بين كلامه تعالى وكلام العباد، وخاصة تلك الهيبة الربانية التي تبرز من وراء كل كلمة من كلمات القرآن الكريم.

وقد نقل السيوطي عن الاصبهاني قولا يمكن أن يوضح هذا المعنى الذي أشرت إليه وخلاصته:

"أما الإعجاز المتعلق بصرف الناس، فظاهر إذا اعتبر... فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة لسانهم إلى معارضة القرآن، وعجزوا عن الإتيان بمثله، ولم يقصدوا لمعارضته، فلم يخف على ذوي البلاغة أن صارفا إلهياً صرفهم عن ذلك.

أيُّ إعجاز أعظم من أن يكون كافّة البلغاء عجزوا في الظاهر عن معارضته، مصروفة في الباطن عنها"[51]

وهذا لو سُلّم ثبوت ذلك عن النظّام.

والذي يجعلنا نستبعد ثبوت ذلك عنه ثلاثة أمور:

- **الأمر الأول:** أن تلميذه الجاحظ لم ينسب القول بالصرفة إليه.
- **الأمر الثاني:** أن خصمه اللدود ابن قتيبة نسب إليه القول بالإعجاز الذاتي للقرآن الكريم.
- **الأمر الثالث:** أن البلخيّ الكعبيّ قد طعن عليه العلماء بطعون متعددة منها أنه لا يتحرّى في النقل بين صحيح وسقيم، وقد قال عدد من العلماء: إنه ممن لا يستحق أن يروى عنه، وقد أثنى عليه أبو حيّان التوحيدي، فقال الجاحظ ابن حجر: " وهذا —المديح- مما يطعن به على التوحيدي"[52].

فانظر كيف جعل الحافظ ابن حجر ثناء التوحيدي على أبي القاسم البلخي طعناً على أبي حيان.

فإذا كان أبو القاسم الكعبي هو الوحيد من المتقدمين قد نسب هذا المذهب للنظّام بينما لم ينسبه من هو أقدم منه وأوثق؛ فكيف يتسنى لنا الجزم بنسبة هذا المذهب إليه؟

المسألة الرابعة: أبو عمرو الجاحظ والقول بالصرفة

تباينت آراء الكاتبين حيال موقف الجاحظ الأديب من القول بالصّرفة، كما تباينت آراؤهم حيال نسبة هذا المذهب إلى شيخه النظّام من قبل:

فمن قائل: أنه يقول بنظريته الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم، ولأجل إثبات ذلك ألّف كتابه (نظم القرآن)[53].

---

[51] **معترك الأقران**، 6/1.

[52] **لسان الميزان**، 255/3.

[53] **الإعجاز في دراسات السابقين**، 164.

ومن قائل: إنه كان يذهب مذهب الصرفة عندما كان متأثراً بشيخه النظّام، ثم انتقل إلى القول بالإعجاز الذاتي، وألف لنصرة هذا المذهب كتابه (نظم القرآن)[54].

ومن قائل: إنه يذهب إلى الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم، ويذهب إلى القول بالصرفة لكن الصرفة التي يذهب إليها الجاحظ غير الصرفة التي يذهب إليه شيخه النظّام.

فبينما يذهب النظّام إلى أن العرب كان يمكنهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأحسن من نظمه؛ لولا أن صرفهم الله عن معارضته.

يذهب الجاحظ إلى أنه لولا الصّرفة؛ لطمعوا في الإتيان بمثله، ولربما تكلفه بعضهم فجاء بأمر فيه أدنى شبهة؛ لعظمة القصة على الأعراب والنساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة عند بعض بلغاء العرب، ولكثر القيل والقال فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له، بصرف نفوسهم عن المعارضة...

وخلاصة كلام صاحب هذا الرأي أن الجاحظ ليس مبرّءاً من القول بالصّرفة، كما لا ننكر عليه إعجابه ببلاغة القرآن الكريم ونظمه... فالإعجاز عنده إذن بالنظم والصرفة معاً"[55].

قلت: مما سبق يتبين لنا عدة أمور يوضح بعضها بعضاً:

- الأول: أن النظّام قد أقر بإعجاز القرآن، ولكن إعجازه بغيبياته وليس بنظمه كما يقال!.
- الثاني: أن النظّام يقول بالإعجاز البياني على حسب ما نقل عنه ابن قتيبة.
- الثالث: أن القول بأن العرب كان يمكنهم أن يأتوا بمثله لولا الصّرفة قد نقله البلخي عن النظّام، ولفظه: " أن النظم مقدور عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم" وزاد البغدادي على النصين السابقين من كِيسه: (فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف) وقد تقدم هذا كله في المسألة الثانية.

والذي أريده قوله هنا: إذا كان ابن قتيبة قد أثبت للنظّام القول بالإعجاز الذاتي والنظم والجاحظ لم ينسب إلى شيخه القول بالصرفة المنافي للقول بالإعجاز، وكان البلخي الكعبي ليس عمدة في النقل، وبينه وبين النظام مائة عام، فلماذا لا يكون رأي النظام بالصرفة هو رأي تلميذه؟ ومن أين الذين يغايرون بين الصرفة عند النظّام وعند الجاحظ الدليل على ما يذهبون إليه؟!

---

[54] **فكرة إعجاز القرآن**، 55–56.

[55] **نظرية إعجاز القرآن**، 31–63.

المسألة الخامسة: أبو حسن الرماني والقول بالصرفة.

ذهب أبو الحسن الرمّاني في رسالته "النكت في إعجاز القرآن" الى أن: "وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات:

- ترك المعارضة مع توفر الدّواعي وشدة الحاجة.
- والتحدي للكافّة.
- والصّرفة.
- والبلاغة.
- والأخبار المصادقة عن الأمور المستقبلة.
- ونقض العادة.
- وقياسه بكل معجزة"[56].

وقد شرح جهة البلاغة في جمهرة صفحات الكتاب باستطرادة طويلة[57] وقال في توضيح مراده بالصرفة: " وأما الصرفة: فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات التي دلّت على النبوّة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول"[58].

المسألة السادسة: الشريف المرتضى والقول بالصرفة

الشريف المرتضى من أجّل علماء الإمامية في الأصول والفروع، وله مقدرة بيانية سامقة لأجلها اتهمه الذهبي وغيره بوضع كتاب نهج البلاغة على جدّه الإمام عليّ كرم الله وجهه[59].

وقد صنف كتابا في الإعجاز سمّاه: "الموضح في إعجاز القرآن" وقد أطنب الطبرسي في مدح هذا الكتاب فقال: " إنه –أي الشريف المرتضى– فرّع فيه الكلام إلى غاية ما يتفرع ونهاه إلى نهاية ما ينتهي، فلا يشقّ غباره غاية الأبد، إذا استولى فيه على الأمد"[60] فهو ذكر (ما لكتاب الشريف من قيمة كبيرة، دون

---

[56] **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (النكت)**، 75.

[57] استغرق كلامه على بلاغة القرآن الصفحات (75–109) والرسالة تبدأ في الصفحة (75) وتنتهي في الصفحة (113)! فتأمل موقع البلاغة عنده، وموقع الصرفة الذي شرحه (ص: 110) في أربعة اسطر!.

[58] **ثلاث رسائل (النكت)**، 110.

[59] في ترجمته من **سير أعلام النبلاء**، 17/ 588–589.

[60] **مجمع البيان**، (15/1).

أن يذكر أي رأي للشريف في الإعجاز وكل ما قال فيه: انه استوفى في تأليفه الغاية"[61] فلم يبق أمامنا إلا الرجوع إلى المراجع التي نقلت عن المرتضى رأيه في الإعجاز، لعلها تطلعنا على حقيقة مذهبه، أو بعضها!

- قال العلامة الأديب مصطفى صادق الرفاعي: " قال المرتضى من الشيعة : معنى الصّرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة؛ ليجيئوا بمثل القرآن".
  فكأنه يقول : أنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما كسبته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم وهذا رأي بين الخلط كما ترى" وذهب نحو هذا في فهم ما نسبه إلى المرتضى الشيخ أبو زهرة[62].
- وقال ياقوت الحموي في معجمه: " قرأت بخط عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب ألّفه في الصّرفة، زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة، حتى صار معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، وأن كل فصيح بليغ؛ قادر على الإتيان بمثله، إلا انهم صرفوا عن ذلك، لا أن يكون القرآن في نفسه معجز الفصاحة.
  وهو مذهب لجماعة من المتكلمين والرافضة منهم: بشر المريسي، والمرتضى أبو القاسم... وقد حمل جماعة من الأدباء قول أصحاب هذا الرأي على أنه لا يُمكّن أحد من المعارضة بعد زمان التحدّي، على أن ينظموا على أسلوب القرآن، وأظهر ذلك قوم أخفاه آخرون"[63].
  وقد نسب القول بالصرفة إلى الشريف المرتضى عدد من الكتب المعاصرين أيضاً[64] وجاء في شرح المصطلحات الكلامية (كتاب شيعي) ما نصّه:
  (الصرفة: فإما أن يكون القرآن من فعله تعالى على سبيل التصديق له –للنبي صلى الله عليه وسلم– فيكون هو العلم المعجز.
  أو يكون تعالى صرف القوم عن معارضته، فيكون الصّرف هو العلم الدّال على النبوة)" جمل العلم والعمل/13، رسائل الشريف المرتضى 19/3".

---

[61] **فكرة إعجاز القرآن**، 97.

[62] الرافعي، **إعجاز القرآن**، 144 وأبو زهرة، **المعجزة الكبرى– القرآن**، 60.

[63] ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، 139/3.

[64] **مناهل العرفان**، 636، **فكرة إعجاز القرآن**، 69 فما بعد **ومباحث في اعجاز القرآن**، 61 وغيرهم.

- (الصرفة: هي أن الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تتأتّى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبوها، لكان ذلك ممكناً) ونسبوا ذلك الى السيد المرتضى والنظّام " تمهيد الأصول/334".
- (الصرفة بمعنى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن، بأن سلبهم العلوم التي كانوا يتمكنون بها من معارضة القرآن) ونسبوا ذلك إلى السيد المرتضى " نهج المسترشدين في أصول الدين/ 59".
- (الصرفة بمعنى أن الله صرف العرب ومنعهم من المعارضة) ونسبوا ذلك إلى السيد المرتضى والنظّام "كشف المراد/ 281")[65].

فهذه النقول المتعددة توضّح أن الشريف المرتضى قد قال بوجه من وجوه الصّرفة بيد أن الناقلين عنه ظنّوها وجها واحداً، فنقلوا على حسب ما فهموا، أو أن يكون هو غير ثابت الرأي فيها، أو أنه كان يقول رأيه مرة، وينقل رأي غيره مرة أخرى، فلم يضبط سامعوه.

على أنه قد وجد للشريف المرتضى كلام يدل على الإعجاز أوضح دلالة.

قال الأستاذ نعيم الحمصي: " وقد وجدت للشريف المرتضى في كتابه "طيف الخيال" وهو يتحدث عن أبيات قالها عمرو بن قميئة، رأيا صريحاً، لم يمزجه برأي آخر، في أن إعجاز القرآن يقوم على بلاغته، يقول الشريف: (فانظر إلى هذا الطبع المتدفّق، والنسج المطّرد المتسق، من إعرابي قُحّ! قيل: انه مفتتح لوصف الطيف، وكأنه لانطباع سبكه، وجودة وصفه؛ قد قال في هذا المعنى الكثير، ونظم منه الغزير، وقلب ظاهره وباطنه، وباشر أوّله وآخره، وكأنه قد سمع فيه من أقوال المحسنين، وإجادة المجيدين؛ ما سلك منهجه وأخرج كلامه مخرجه!

ولكن الله تعالى أودع هؤلاء القوم من أسرار الفصاحة، وحداهم من مسالك البلاغة إلى ما هو ظاهر باهر، ولهذا كان القرآن معجزاً، وعلماً على النبوة، لأنه أعجز قوماً هذه صفاتهم ونعوتهم)[66].

وإذا كان إعجاز القرآن البياني الذاتي يخفى على مثل الشريف المرتضى، فكم رجل من هذه الأمة يقدر على اكتشافه وتذوّقه، على توقفنا الشديد، ومخالفاتنا، لبلايا طائفته!؟

---

[65] **شرح المصطلحات الكلامية**، 187.

[66] **فكرة اعجاز القرآن**، 71.

المسألة السابعة: أبو الحسن الماوردي والقول بالصرفة

لأبي الحسن الماوردي الفقيه الشافعي المشهور كتاب (إعلام النبوة) ذكر فيه للإعجاز القرآني عشرين وجهاً، وجعل الصرفة هي الوجه الأخير، فقال:

"الوجه العشرون من إعجازه: الصّرفة عن معارضته، واختلف من قال بها: هل صُرفوا عن القدرة على معارضته، أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم؟ على قولين:

- أحدهما انهم صرفوا عن القدرة، ولو قدروا؛ لما رضوا.
- والثاني: انهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم.

والصرفة إعجاز على القولين معاً: في قول من نفاها وأثبتها، فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة"[67].

وقال أيضاً: " فإذا ثبت إعجاز القرآن من هذه الوجوه كلها، صح أن يكون كل واحد منها معجزا، فإذا جمع القرآن سائرها؛ كان إعجازه أقهر، وحجاجه أظهر، وصار كفلق البحر وإحياء الموتى؛ لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله"[68].

المسألة الثامنة: أبو محمد ابن حزم والقول بالصرفة

أجد من الأمانة العلمية أن أشير إلى أن عدداً من الباحثين نسب إلى ابن حزم القول بالصرفة وظهر لي إن المتأخر ينقل عن المتقدم[69].

وأنا بدوري سوف أنقل خلاصة رأي ابن حزم من أجمع مصدر لخّصه مع وقوفي عليه في الفصل والرسائل لابن حزم.

"يعتقد ابن حزم بأن القرآن الكريم في أعلى درجات البلاغة من حيث أن الله قد بلغ به ما أراد، فهو في هذا المعنى في الغاية التي لا شيء أبلغ منها، وليس هو في أعلى درج البلاغة في كلام المخلوقين؛ لأنه ليس من نوع كلامهم، لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من متوسطه ويرى أن القرآن معجز؛ لأنه كلام الله تعالى، والبرهان على ذلك أنه استعمل الحروف المقطعة، فلم ينل من ذلك بلاغته، ولو استعمل رجل ذلك؛ لعيب عليه؛ أنه خارج عن البلاغة المعهودة.

---

[67] الماوردي، **أعلام النبوة**، 85.

[68] ن.م.، 85.

[69] محمد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، 60، **فكرة إعجاز القرآن**، 81، **البيان في إعجاز القرآن**، 108، محمد أبو صعيليك، **ابن حزم وآراؤه في علوم القرآن والتفسير**، 87 فما بعد، وغيرهم.

ويعقّب على ذلك بما يفهم منه أنه يقول بالصّرفة، فيقول: فصّح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلاً، وأن الله تعالى منع الخلق من مثله، وكساه الإعجاز، وسلبه جميع كلام الخلق.

وهو يرى أن القرآن كله معجز؛ لأنه كلام الله، ولأن هذه الكلمات لو ذكرت في غيره لما كانت معجزة.

وخلاصة هذا الاختصار أن يحصر مذهب ابن حزم في مسألتين:

- الأولى: أن الله تعالى لم يمكّن الخلق من مثله؛ لأنه لا مثيل له أصلاً، وهذا عدّوه من الصرّفة.
- الثانية: أن إعجازه شامل لحروفه وكلماته وآياته وسوره، وليس في ثلاث آيات قصار مثل سورة الكوثر، لأنّ منزّله منع القدرة على مثله، وحال بين البلغاء وبين أن يجيئوا بمثله"[70].

ويبدو لي أن رأي ابن حزم في إعجاز القرآن كلّه لأنه كلام الله، وأن كلمات القرآن لو كانت في غيره، لما كان لها ذلك الاعجاز، ولا تلك البلاغة؛ يلتقي مع رأي سيّد قطب الذي يرى الإعجاز في القرآن روحاً تسري في جميع سوره وآياته وكلماته.

ويلتقي مع رأي الدكتور البوطي في أن الذي يعطي القرآن الكريم إعجازه وتفوقه هو جلالة الربوبية الذي يطغى على كل كلماته![71].

المسألة التاسعة: الشاعر ابن سنان الخفاجي المعتزلي والقول بالصّرفة

تقدم في المسألة السادسة أن ياقوت الحموي نص على أن ابن سنان الخفاجي ممن يذهب إلى الصّرفة، وهو يذهب أيضاً إلى إعجاز القرآن البياني، حيث يقول: " إن هناك قولين في الخلاف الظاهر فيما به كان القرآن معجزاً:

- القول الأول: خرق العادة بفصاحته، وعلم الفصاحة ضروري للقائل بهذا، حتى يعلم به خرق العادة.
- القول الثاني: هو أنه معجز بصرف العرب عن معارضته، مع أنها في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم" ويرى أن هذا هو الوجه الصحيح، حيث يقول:

"إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا أن من إعجاز القرآن؛ صرف العرب عن معارضته؛ بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك"[72].

---

[70] **فكرة إعجاز القرآن**، 81 **وابن حزم وآراؤه في علوم القرآن**، 88.

[71] **فكرة إعجاز القرآن**، 360، 429.

[72] ابن سنان، **سرّ الفصاحة**، 89 وانظر منه 216.

المسألة العاشرة: إمام الحرمين الجويني الشافعي والقول بالصّرفة

في كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة قرّر إمام الحرمين "أن وجه إعجاز القرآن هو اجتماع الجزالة مع الاسلوب، والنظم المخالف لسائر أساليب كلام العرب، فلا يستقلّ النظم بالإعجاز على التجريد، ولا تستقل الجزالة أيضاً، ثم الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة أيضاً"[73].

أما في كتاب العقيدة النظامية، فقد تراجع عن هذا القول، وذهب الى أنّ الصّرفة هي وجه الإعجاز الحقيقي، فقال: " من تأمل كلام العرب في نظمها ونثرها؛ لم يتحقق عنده انتهاء جزالة القرآن، إلى حدّ الخروج عن العادة في الزيادة على كلام الفصحاء، ومن تكلّف إثبات ذلك؛ فقد تكلف شططا، وظن غلطاً، وتهدّف للكلام الطويل من غير تحصيل!

ومن أنصف وانتصف، ولم يتعسّف، لم يَلُح له أن شعر امرئ القيس والنابغة الذبياني والنابغة الجعدي وزهير وأعشى باهلة والمعلقات السبع وغيرها، تقصر في الجزالة عن القرآن..." إلى أن قال: " فتبين قطعاً أن الخلق ممنوعون من مثل ما هو من مقدورهم... ومن هُدي لهذا المسلك؛ فقد رُشد إلى الحقّ المنير... فصَرف الله الخلق عن الإتيان بمثله أوقع وأنجع"[74].

يلاحظ أن الجويني كان جريئا في صراحته.

المسألة الحادية عشرة: الإمام أبو حامد الغزالي الشافعي والقول بالصرفة.

يبدو أن مسألة القول بالصَّرفة بدأت تفرض نفسها بعد أن هدأت حدّة الصراع الطائفي الذي تأزم بين أهل السنة من جهة، والمعتزلة من جهة أخرى.

وقد تقدم ابن حزم والماوردي والجويني– وهم من كبار أئمة أهل السنة في القرن الخامس– وقد عدّوا الصرفة أحد وجوه الإعجاز، بل عدّها الجويني وابن حزم المذهب الصحيح.

وقد أوضح الإمام الغزالي أنّ (الجزالة والفصاحة، مع النظم العجيب، والمنهاج الخارج عن مناهج العرب في خطبهم وأشعارهم وسائر صنوف كلامهم، والجمع بين هذا النظم وهذه الجزالة؟ معجز خارج عن مقدور البشر)[75] فظاهر قول الغزالي بالإعجاز البياني الذاتي!

ثم قال على سبيل التنزّل: (فان قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال، فلم تعرّج على معارضة القرآن، ولو قصدت لقدرة عليه...

---

[73] **الإرشاد**، 349–350، وانظر **نظرية إعجاز القرآن**، 70.

[74] **العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية**، 72–74، مقتطفات.

[75] **الاقتصاد في الاعتقاد**، 105.

والجواب: أن هذا هوس، فان دفع تحدّي المتحدي بنظم كلام؛ أهون من الرفع بالسيف!... ثم ما ذكروه غير دافعٍ غرضَنا، فإن انصرافهم عن المعارضة؛ لم يكن إلا بصرف من الله تعالى والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات... وأن فَرض وجود القُدرة –على المعارضة– ففقد داعيتهم وصرفهم عن المعارضة من أعظم المعجزات)[76].

المسألة الثانية عشرة: فخر الدين الرازي الشافعي والقول بالصّرفة

قال الفخر الرازي في خطبة كتابه "نهاية الإيجاز" : (الفصل الأول في أن القرآن معجز أن الإعجاز في فصاحته.

الدليل على كون القرآن معجزاً؛ أن العرب تُحُدّوا إلى معارضته ولم يأتوا به، ولولا عجزهم عنها؛ لكان محالاً أن يتركوها، ويتعرضوا لشَبا الأسنّة، ويقتحموا موارد الموت.

وأمّا وجه كونه معجزاً، فللناس فيه أربعة مذاهب:

–قال النظّام: إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزّلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام.

والعرب إنما لم يعارضوه؛ لان الله تعالى صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به[77].

ثم ردّ رأي النظّام هذا، ودلّ على فساده من ثلاثة وجوه، منتصراً لمذهب الإعجاز. بيد أنه في تفسيره لآية التحدي في سورة البقرة جعل الصرفة وجهاً من وجوه الإعجاز فقال :"القرآن لا يخلو: إمّا أن يقال: إنه كان بالغاً في الفصاحة حدّ الإعجاز، أو لم يكن كذلك!

- فإن كان الأول؛ ثبت أنه معجز.
- وإن كان الثاني؛ كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها؛ أمر خارق للعادة؛ فكان ذلك معجزاً، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب"...

ثم قال في السياق نفسه:" فإن قيل: قوله: (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر، وسورة (أيها الكافرون) ونحن نعلم أن الإتيان بمثله، أو بما يقرب منه ممكن.

فإن قلتم: إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر؛ كان ذلك مكابرة والإقدام على أمثال هذه المكابرات، مما يطرّق التهمة إلى الدين؛ قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه

---

[76] **الاقتصاد في الاعتقاد**، 106 وانظر **نظرية إعجاز القرآن**، 72.

[77] **نهاية الإيجاز**، 78.

السورة في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز فقد حصل المقصود، إن لم يكن الأمر كذلك؛ كان امتناعهم عن المعارضة مع شدّة دواعيهم إلى توهين أمره معجزاً، فعلى هذين التقديرين؛ يحصل المعجز"[78]).

المسألة الثالثة عشرة: ابن سراقة مالكي والقول بالصّرفة.

أورد حاجي الخليفة في كشفه أن له كتاباً في الأعداد جاء في مجلّد، وذكر أنه توفي سنة 662هـ، قال حاجي :"هو تأليف غريب، فيه مراتب الأعداد، يذكر ما ورد منها في القرآن الكريم، وما رتّب عليها من الأحكام، أو وافقها في العدد"[79].

وقد ذكره نعيم في علماء القرن الخامس الهجري، وأرخ وفاته في (410 هـ) وهو وهم ظاهر لا ريب[80].

ونحن لا ندري في أيّ كتاب أورد ابن سراقة رأيه في الإعجاز، ولكن الإمام السيوطي أورده في الإتقان، فقال:" قال ابن سراقة: أختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلّها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره"[81].

وقد استنبط الأستاذ نعيم الحمصي من هذه العبارة؛ أن ابن سراقة يرى الإعجاز البياني والصرفة، مع تناقضهما حكمة وصواباً، أو كما يقولون: خير وبركة[82].

والصواب الذي عليه أهل العلم أنه لا ينسب إلى ساكت قول، وقد أورد السيوطي ثمانية أوجه مما ذكره ابن سراقة، ولم يذكر الصّرفة، فيكون في هذا الاستنباط نظر والله أعلم.

المسألة الرابعة عشرة: المتكلّم نصير الدين الطوسي الشيعي والقول بالصّرفة

للامام فخر الدين الرازي كتاب اسمه (محصل أفكار المتقدمين) لخّصه الطوسي في كتاب (تلخيص المحصّل) ووجّه إلى الرازي انتقادات رآها واردة عليه، ولهذا سُمّي كتابه (تلخيص المحصّل) و (نقد المحصّل)[83] وقد أوضح آراء العلماء في إعجاز القرآن فقال:" أقول: إعجاز القرآن على قول قدماء المتكلمين وبعض المحدَثين في فصاحته! وعلى قول بعض المتأخرين في صرف عقول الفصحاء القادرين

---

[78] **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، 127/2–128 مقتطفات، وانظر **فكرة إعجاز القرآن**، 99–106 **ونظرية إعجاز القرآن**، 69.

[79] **كشف الظنون**، 1394 وله شرح على: الزرقالي الصُّرد، **الكافي في الفرائض**، 1377 وانظر منه ص: 1575.

[80] **فكرة إعجاز القرآن**، 80.

[81] السيوطي، **الإتقان**، 2/ 262 وانظر **فكرة إعجاز القرآن**، 80 **ونظرية إعجاز القرآن**، 97.

[82] **فكرة إعجاز القرآن**، 80.

[83] **كشف الظنون**، 1974.

على المعارضة، عن إيراد المعارضة... والاستدلال بالأخلاق والأفعال أيضاً، وهو معنى قوله تعالى: (ويتلوه شاهد منه)[84] فإن ذلك يشهد على صدقه في دعواه، وهو صادر منه"[85].

قال نعيم الحمصي: "يتضح من هذا النصّ؛ أن الطوسي ذكر ما يراه غيره من القدماء والمحدثين في الإعجاز بالفصاحة أو بالصرفة، دون أن يرجّح رأياً على الآخر.. وقد أضاف إلى وجهي البلاغة والصّرفة وجها آخر أورده بعض القدماء، مؤيداً فكرة الإعجاز، وهو سيرة النبيّ الخلقية والسلوكية، وأخلاقه الطاهرة قبل البعثة، فهي تدلّ على صدقه، ويستشفّ من كلامه الموجز جداً أنه يأخذ بهذا الرأي"[86].

المسألة الخامسة عشرة: ابن جزيّ الكلبي المالكي والقول بالصّرفة

لابن جزي الكلبي كتاب (التسهيل لعلوم التنزيل) في تفسير القرآن الكريم، قدم له بمقدّمه ضافية، ربما كانت أطول مقدمة لتفسير مطبوع –في حدود اطّلاعي– وقد تناول فيه مسائل كثيرة تخصّ التفسير وعلوم القرآن، فكان ممّا قاله في خطبته: " اعترف علماء أرباب اللسان بما تضمّنه –القرآن– من الفصاحة والبراعة والبلاغة... وجعله قولاً فصلاً، وحكماً عدلاً، وآية بادية، ومعجزة باقية، يشاهدها من شهد الوحي ومن غاب، وتقوم به الحجة للمؤمن الأوّاب، والحجة على الكافر المرتاب"[87] وقد جعل الباب الحادي عشر من تلك المقدمة للحديث على إعجاز القرآن فقال: " الباب الحادي عشر: في إعجاز القرآن، وإقامة الدليل على أنه من عند الله عزّ وجلّ، ويدلّ على ذلك عشرة أوجه" وسردها[88].

وفي تفسير آية التحدّي من سورة البقرة، وأوضح أن ذلك من جهات، وعندما فسّر قوله (ولن تفعلوا) ذكر أنّ الواقع قد صدق ذلك، وأنّ في الإخبار به معجزة أخرى...

وذكر وجهين لتعليل عجز الخلق عنه:

- الأول: أنهم لا يقدرون على الإتيان بمثله. قال: وهو الصحيح.
- والثاني: أنه كان في قدرتهم وصرفوا، وأتبع ذلك بأن الإعجاز حاصل على الوجهين ومعنى ذلك أنه قبل وجه الصّرفة هنا، مع أنه أعتبر وجه التعليل الأول هو الصحيح"[89].

ويظهر أن قبوله وجه الصّرفة كان على سبيل التنزّل، وليس مطلقاً.

---

[84] هود: 17.

[85] **تلخيص المحصّل**، 151.

[86] **فكرة إعجاز القرآن**، 109.

[87] **التسهيل** (2/1).

[88] ما سبق، 14/1.

[89] **فكرة إعجاز القرآن**، 126.

المسألة السادسة عشرة: شمس الدين الأصبهاني الشافعي والقول بالصّرفة

ذكر حاجي خليفة أن الأصبهاني شرح مختصر ابن الحاجب، ومنهاج البيضاوي الأصوليين[90] وهذا يعني أن الأصبهاني أصولي فقيه، ولم نقف على شيء من مصنفاته، لكن السيوطي في الإتقان قد احتفظ لنا برأيه في اعجاز القرآن، وخلاصته عنده:

" قال الأصبهاني في تفسيره: أعلم أن الإعجاز القرآن ذُكر من وجهين:

- أحدهما: إعجاز متعلق بالنفس.
- والثاني: بصرف الناس عنه... وذكر وجوه الإعجاز الذاتية للقرآن الكريم ثم قال: وأما الإعجاز المتعلّق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضاً إذا اعتبر!... فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة إلى معارضته القرآن، وعجّـزهم عن الإتيان بمثله، ولم يتصدّوا لمعارضته؛ لم يخف على أولي الألباب أن صارفاً إلهياً صرفهم عن ذلك!

وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء قد عجزت في الظاهر عن معارضته، مصروفة في الباطن عنها؟"[91].

ولفت نظر الأستاذ الحمصي استعمال الأصبهاني لفظي الظاهر والباطن في قوله (عجزت في الظاهر عن معارضته، مصروفة في الباطن عنها... قال: وأرجح أنه يقول هذا، متأثراً بفكرة الباطنية في التفسير"[92].

أقول: لا يترجح لي ما رجّحه الأستاذ الحمصي، فالظاهر المقصود هنا، وهو ظاهر التحدي الذي لم يقابل بأشياء ملموسة في الواقع، وسبب ذلك هو الانصراف والانهزام النفسي –وهو أمر باطني– الذي ثبّطهم عن المعارضة في الواقع.

المسألة السابعة عشرة: ابن كمال باشا الحنفي والقول بالصّرفة

ذكر حاجي خليفة في كشفه أنّ لابن كمال باشا تفسيراً وصل فيه إلى تفسير سورة الصافات في الجزء الثالث والعشرين من القرآن الكريم– قال في وصفه: " وهو تفسير لطيف في تحقيقات شريفة، وتصرفات عجيبة، وأرخ وفاته (940هـ)[93].

---

[90] **كشف الظنون**، 1853، 1878.

[91] **الإتقان**، 258/2، 260 مقتطفات، وانظر: **فكرة إعجاز القرآن**، 136.

[92] **فكرة إعجاز القرآن**، 136.

[93] **كشف الظنون**، 439 وانظر منه: 54، 94، 109، 354، وفي جميعها يؤرخ وفاته (940 هـ) وقد أرخ الحمصي وفاته بـ (938 هـ) من غير إشارة إلى مصدر. انظر **فكرة إعجاز القرآن**، 164.

وقد طبعت رسائل عديدة لابن كمال الباشا تحت عنوان (رسائل ابن الباشا) جاء في الرسالة الخامسة عشرة منها ما لخصّه: " إنه لا شبهة في إعجاز القرآن، ولكن إعجازه لا يقتضي أنه كلام الله، فإن الإعجاز لا يشترط فيه أن يكون خارقاً للعادة، بل قد يكون بالصرفة.

والذي خلص إليه الأستاذ نعيم الحمصي من تلخيص كلامه " أن القرآن معجز، ولكنه لا يعجز ببلاغته، بل الصرفة، وإن إعجاز القرآن يثبت بالشرع، وأن الدَّور هنا لا يصح!

يعني: أن الشرع الذي أثبته إعجاز القرآن؛ لا يثبت إعجاز القرآن، وأنه يردّ كلام الذين يقولون بهذا الدور"[94].

المسألة الثامنة عشرة: الخطيب الشربيني الشافعي والقول بالصّرفة

ذكر الشيخ الزرقاني تفسير العلامة الشيخ محمد الشربيني الخطيب، المسّمى: " السراج المنير في الإعانة على معرفة كلام ربنا الخبير" ضمن أهم كتب التفسير بالرأي المحمود[95].

وقد قرر الشربيني إعجاز القرآن في مقدمة تفسيره المشار إليه، وفي سائر المواضع التي فسّر فيها آيات التحدي: بمثل القرآن، وبعشر سور، وبسورة واحدة، ما عدا آية التحدي في سورة الإسراء: (قل: لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن؛ لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً).

فقد قرر في تفسيره إياها: إعجاز القرآن في نفسه، والإعجاز بالصرفة.

قال الأستاذ الحمصي: " والذي نأخذه عليه – يعني الخطيب – أنه جمع بين البلاغة والصرفة في تفسير سورة الإسراء، ولم ينقض الصرفة ويرفضها، بل فضّل عليها البلاغة مجّرد تفضيل"[96].

هؤلاء هم العلماء الذين نسب إليهم القول بالصرفة، وقد توضحت لنا من سياقة آراء العلماء تاريخياً جملة أمور أوجزها في المسألة التالية.

المسألة التاسعة عشرة: معالم على طريق الردّ على الصرفة.

هذه المعالم توضّح لنا تطور مواقف العلماء من القول بالصرفة، وتحدّد المواضع التي تحتاج الى مناقشة وردود.

- المعلم الأول: مضت ثلاثة قرون على قول واصل بن عطاء (131 هـ) بالصرفة –إن صحّ النقل عنه– ولم يقل بالصرفة أحد من أهل السنة، وكان المعتزلة وحدهم هم الذين يقولون بها، إذا اعتبرنا

---

[94] **فكرة إعجاز القرآن**، 165.

[95] **مناهل العرفان**، 378.

[96] **فكرة إعجاز القرآن**، 174–175.

الشريف الرضي –الشيعي– امتداداً لمذهب المعتزلة، حيث أن المذهب الشيعي –زيدية وإمامية– معتزلة في أصول الدين، إلا في مسائل مخصوصة معروفة.

- المعلم الثاني: " يتضح من تأمل الظاهرة التاريخية في مسيرة التأليف القرآني أن التأليف في الإعجاز بدأ مجرّد ردود على أسئلة مثارة تتعلق بكلمة، أو خاطرة أو فهمٍ لآية معينة.

وكان هذا اللون خاضعاً لمنطق ردّ الفعل، بكل ما يحمل هذا المنطق من محدوديّة النظر وتسامح التحديد الاصطلاحي، إلى حدّ الخلط بين المصطلحات، ثم ينتقل التأليف من مجرد الملاحظة، إلى التأصيل والتنظير، ومن مجرد المجابهة إلى التأمل والاستنباط، ومن مجرد التعريف والتفريع، إلى فلسفة التفريعات والمصطلحات، ويمثل ذلك مرحلة الشريف الرضي وعبد القاهر الجرجاني. ثم ترسو زوراق التأليف في الإعجاز عند النظر العقلي المجرّد في كثير من قضاياه، وعند لون من مزج هذه الدراسات بتيارات التفلسف والموقف الفكري العقدي، مؤذنة بجمود الحركة عن هذا المستوى"[97].

- المعلم الثالث: كان عدد العلماء المعتزلة الذين نسب إليهم القول بالصرفة خمسة علماء وعالمان من الشيعة الإمامية، وكان القائلون بها من أهل السنة عشرة علماء: أحدهم ظاهري، والآخر ماتريدي حنفي، والباقون من الأشاعرة شافعية ومالكية!

ويلاحظ أن متقدّمي الأشاعرة كانوا يضللون، وربما كفروا من قال بالصرفة، بينما قال بها عدد من أكابر علمائهم المتأخرين !؟

ولم يقل بها أحدٌ من الحنابلة المتقدمين، وتردّد فيها قول ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم من المتأخرين فمال ابن تيمية إلى القول بها على سبيل التنزل في المحاجة، ومال الثاني إلى أنها وجه من وجوه الإعجاز مع التردد[98].

- المعلم الرابع: ظهر لنا أن تبيّن الإعجاز القرآني ليس ميسوراً لكل أحد، وإنما يحسنه أفراد في كل جيل من أجيال الأمة، والأمة متابعة لهذا النفر المعدودين ممن يتقن البلاغة ويتذوّق سمو البيان القرآني!

وقد أشار إلى هذا المعنى كثيرون ممن تناول الإعجاز القرآني بالدرس، ومن أواخر هؤلاء الأفاضل الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم، إذ قال:

"فإذا أحببت أن تعرف للقرآن سبقه، وبلوغه الغاية في هذا المضمار، وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل

---

[97] **نظرية إعجاز القرآن**، 40–41 نقلا عن **الإعجاز القرآني من الوبقة التاريخية**، 53.

[98] **نظرية إعجاز القرآن**، 73.

بين درجات الكلام؛ فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حسّ وخبرة وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه مسلّما عن أهله، وتقنع فيه بشهادة العارفين به"[99].

- المعلم الخامس: جميع القائلين بالصّرفة جعلوها وجهاً من وجوه الإعجاز، إلا ما نسب إلى النظّام من المعتزلة، وما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن كمال باشا من أنها الوجه الوحيد للإعجاز، وليس البيان القرآني معجزاً.

المطلب الخامس

مذاهب العلماء في نقض فكرة الصّرفة

يتضمن هذا المطلب نقض أدلة "الصرفة" وإثبات أدلة القائلين بأن الإعجاز والتحدّي إنما كان بالقرآن ذاته: نظماً وأسلوباً ومعاني وعلوماً ونحو ذلك، وليس بشيء خارج عنه. وهذا يستدعي أن نتعرف إلى آيات الإعجاز والتحدّي بالقرآن؛ لننطلق بعدها إلى تشخيص مذاهب القائلين بالصّرفة وتقريبها بسطور، تمهيداً لنقضها ودحض شبهها في مسائل.

المسألة الأولى: المبررات التي استند إليها القائلون بالصرفة

بعد تتبعي التاريخي لأقوال العلماء الذين نسب إليهم القول بالصرفة؛ ترجح عندي أن واصل بن عطاء، لم يثبت عنه شيء من القول بالصرفة، ولم يثبت أن النظّام قال بها، وإنما نسب الجاحظ القول بها إلى تلامذة النظّام الذين قالوا بها، وأنكروا الإعجاز، بينما قال هو بالإعجاز القرآني وعدّ الصرفة وجهاً آخر من وجوه إعجازه وترجح عندي أن هذا هو مذهب النظام أيضاً.

ويبدو لي أن ما ذكره بعض العلماء والباحثين من أن المعتزلة تأثروا بترجمة كتاب (الفيدا)[100] الذي يثبت مسألة الصرفة بعيد جداً عن الحقيقة في تقديره؛ لأن المعتزلة في تلك الحقبة كانوا هم المنافحين عن هذا الدين بالأدلة العقلية التي لا يقبل الخصوم غيرها، ولم يكن علماء الأثر يحسنون شيئا منها ولا يعرجون عليه، بل كانوا يكفرون ويضللون ويبدعون أهل الكلام.

والذين ذهبوا إلى اتهام المعتزلة بهذا؛ لم يأتوا بأي دليل سوى وجود هذه الفكرة عند الهندوس قبل المسلمين، ولا يخفى أن مجرد سبق الهندوس بهذه الفكرة؛ لا يستلزم أن من قال بمثلها من المسلمين قد تأثر بهم.

---

[99] **النبأ العظيم**، 92.

[100] أبو زهرة، **القرآن المعجزة الكبرى**، 57 والدكتور مصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، 58.

وإن كل الذين يقولون بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، يؤكدون أن من لم يتقن فن البلاغة، ويتمرس بتطبيقاتها؛ لا يمكنه أن يكتشف أوجه الإعجاز القرآني البياني الذاتي، وسيأتي نقل بعض ذلك قريباً.

وقد نظر هؤلاء القائلون بالصرفة؛ فرأوا عددا من أكابر الصحابة رضوان الله عليهم لا يستطيعوا التفريق بين سور القرآن الكريم وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وعددا منهم لم يستطع الاستدلال بالنظم القرآني على قرآنية بعض السور التي أجمع الصحابة على قرآنيتها، فكيف لعامة المسلمين أن يفهموا ذلك، ثم يعتقدوه؟![101].

وإن تلمس جوانب الإعجاز البياني في القران الكريم؛ لا يتأتى إلا لنفر قليل من الناس في كل زمان ومكان، ولم يكن هذا غائبا عن المعتزلة، ولا عن غيرهم، من المتقدمين والمتأخرين.

وقد روى المؤيد الشيرازي عن ابن الراوندي قوله: "انه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب افصح من القبائل كلها، وتكون عدة من تلك القبيلة افصح من تلك القبيلة، ويكون واحد من تلك العدة افصح من تلك العدة... إلى أن قال: وهب أن باع فصاحته طال على العرب، فما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان، وما حجته عليهم؟"[102].

وكأن الباقلاني عنى هذا وغيره بقوله:

" لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم أن يعرفوا إعجاز القران، إلا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك...

وكذلك نقول: إن من كان من أهل اللسان العربي، إلا انه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الأدنى الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرّف اللغة، وما يعدّونه فصيحا بليغا بارعا من غيره؛ فهو كالأعجمي في انه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القران..."[103].

---

[101] وهو ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري، حديث رقم (1050)، " إنا كنا نقرأ سورة، كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أني قد حفظت منها: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب.....) الحديث، وما جاء من حديث أبي بن كعب عند البخاري انه قال:" كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت " ألهاكم التكاثر!")، وما جاء عن ابن مسعود في البخاري " كان عبد الله بن مسعود يحك المعوذتين من مصحفه ويقول: انهما ليستا من كتاب الله" وغير ذلك من الروايات انظر: **فتح الباري**، 262/11، ففي هذه الرواية أن ابن مسعود رضي الله عنه، لم يتبين أنها من القران الكريم، وظنهما تعويذة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلك قد عاب عليه النظّام، كما ذكرت كلامه قبل في المسألة الثانية، وهناك روايات عديدة في هذا المعنى أتركها اختصارا.

[102] **فكرة إعجاز القرآن**، 52 وانظر منه 72.

[103] الباقلاني، **إعجاز القرآن**، 133.

وقال الدكتور محمد عبد الله دراز من المعاصرين: "فإذا أحببت أن تعرف للقران الكريم سبقه، وبلوغه الغاية في هذا المضمار، وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام فاعلم انه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حس وخبرة، وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه مسلّما عن اهله، وتقنع فيه بشهادة العارفين به"[104].

قلت: يضاف إلى ما سبق أن المعتزلة –فيما يبدو– نظروا إلى أن القول بالإعجاز الذاتي للقران الكريم عقيدة، والعقيدة عندهم وعند الأشاعرة، لا يجوز فيها التقليد فلعلهم التمسوا في القول بالصرفة سبيلا يتمسك به من لا يستطيع تلمّس مواطن الإعجاز في القران الكريم.

ويبدو لي انه لا بدّ من البحث عن وجوه أُخر للإعجاز القراني، يستطيع تفهمها اكثر الناس، حيث أن معرفة الإعجاز البياني مقصورة على كبار الأدباء والبلغاء، وخاصة في عصرنا الراهن هذا.

المسألة الثانية: أدلة القائلين بالصّرفة

يبدو أن من منهج المتقدمين في الحوار والجدال، عدم عرض أدلة الخصم، بعد عرض فكرته، وإنما يُكتفى بالتشنيع عليها، ومباشرة ردها ونقضها. ولذلك فإنني لم أقف على دليل واحد ساقه الذين ردّوا على الصرفة وشنّعوا على القائلين بها. ولهذا فإنني سأعرض مبررات القول بالصرفة، على أنها أدلّة، غير غافل عن الفرق بين المبررات والأدلة.

فحين يعرض الرازي ما نسبه إلى النظّام من قول: " إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة، لبيان الأحكام من الحلال والحرام.

والعرب إنما لم يعارضوه؛ لأن الله صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به"[105].

ثم شرع الرازي يدلّل على فساد هذا القول، دون أن يذكر مستند النظّام فيما ذهب إليه!

- **التعليل الأول:** علّل الجاحظ القول بالصرفة بما يأتي:

إن الله تعالى (رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة بعد أن تحداهم الرسول بنظمه لذلك لم نجد أحداً طمع فيه.

ولو طمع فيه؛ لتكلّفه، ولو تكلّف بعضهم ذلك، فجاء بأمر فيه شبهة؛ لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب والنساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال، فقد رأيت أصحاب مسيلمة، وأصحاب بني النواحة إنما تعلقوا بما ألّف

---

[104] **النبأ العظيم**، 92.

[105] **نهاية الإيجاز**، 78.

لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه، أنه إنما عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه، وتعاطى أن يقاربه، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له"[106].

- **التعليل الثاني**: علّل به نصير الدين الطوسي القول بالصرفة فقال:

" إعجاز القرآن على قول قدماء المتكلمين وبعض المحدثين في فصاحته، وعلى قول بعض المتأخرين في صرف عقول الفصحاء القادرين على المعارضة، عن إيراد المعارضة. قالوا: كل أهل صناعة اختلفوا في تجويد تلك الصناعة، فلا محالة يكون فيهم واحد لا يبلغ غيره شأوه، وعجز الباقين عن معارضته لا يكون ذلك معجزاً له؛ لأن ذلك لا يكون خرقاً للعادة.

لكن صرف عقول أقرانه القادرين على معارضته؛ يكون خرقاً للعادة، فذلك هو المعجز"[107].

- **التعليل الثالث**: أورده شمس الدين الأصبهاني، حيث جعل إعجاز القرآن من وجهين:
- أحدهما: إعجاز متعلق بنفسه.
- والثاني: إعجاز متعلق يصرف الناس عن معارضته، فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة لسانهم، إلى معارضة القرآن، وعجزوا عن الآتيان بمثله، ولم يتصدوا لمعارضة؛ لم يخف على أولي الألباب؛ أن صارفاً إلهيا صرفهم عن ذلك!

وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزت في الظاهر عن معارضته، مصروفة في الباطن عنها؟"[108]

- **التعليل الرابع**: وخلاصة هذا التعليل أن إمام الحرمين والتفتازاني وابن كمال باشا يذهبون إلى أن إعجاز القرآن قد ثبت بالشرع، وأنّ الإعجاز قد يكون بالصّرفة؛ لأن ظهور المعجزة وفق دعوى النبي تصديق له سواء أكان المعجز كلاما، أو غيره.

بيد أن ابن كمال باشا لا يوافق على أن القرآن معجزة خارجة عن قوة البشر، قال الحمصي: وظاهر أن عدم موافقته سببه قوله بالصرفة.

قلت: ربما عدم موافقته؛ لأنه أعجمي لا تقوى ملكته البيانية على تصوّر مسألة الإعجاز البياني للقرآن.

ويقول ابن كمال باشا: إن إعجاز القرآن، لا يعني أنه كلام الله؛ لأن معنى هذا، أنه كلام النبي صلى

---

[106] الجاحظ، **كتاب الحيوان**، 4/31–32، وقال بنحوه صاحب الطراز العلوي كما في **فكرة الإعجاز**، 131.

[107] **تلخيص المحصّل**، 151 نقلاً عن: الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، 109.

[108] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، 260/2.

الله عليه وعلى آله وسلم، وأن استنادا إلى أن بعض الأدباء قد يـأتي بكـلام شـعراً، أو نثـراً يعجـز عنـه غيره؛ فلا يقتضي أن يكون كلام الأديب كلام الله"[109].

هذا كل ما وجدته من تعليلات للقول بالـصرفة، ولم يبـق بـين أيـدينا، إلا الـردود عـل هـذه المـسألة في مطلب قادم.

المسألة الثالثة: الآيات الدالة على الإعجاز والتحدي بالقرآن ذاته

يختلف العلمـاء في ترتيـب آيـات التحـدّي، فمـنهم مـن يبـدأ بالآيـات الـتي تنفـي عـن القـرآن الريبـة والاختلاف والتطلع، ثم يبدأ بآيات التحدّي بالقرآن عامة، ثم بآيات التحدي بعـشر سـور ثـم بالآيـات التي فيها التحدّي بسورة واحدة.

وقبل عرض آيات التحدي على حسب تاريخ النـزول أحبُّ الإشارة إلى معظم سـور القـرآن الكـريم متفق على مكيتها ومدنيتها، سوى اثنتي عشرة سورة، فقد وقع فيها الخلاف وهي: الفاتحة، والرعـد، والرحمن، والصف، والتغابن، والتطفيف، والقدر، والبينة، والإخلاص، والمعوذتين[110].

ولا خلاف في أن البقرة والأنفال مدنيتان، ولا خلاف في أن سور هود والإسراء والطور مكيّة[111].

بيد أن ترتيب المدني على حسب النزول، والمكي على حسب النزول؛ أكثره اجتهادي وما أورده الشيعة من ترتيب مصحف عليّ رضي الله عنه على ترتيب نزول السور، ليست لديهم أدّلة صحيحة الأسـانيد فيه، فلا يسعنا الاعتماد عليه.

والذي سوف نعتمده هو ما درجت عليه المصاحف العثمانية المتداولة بين المسلمين مـن عهـد شـيخ قـراء مصر العلامة السيد الشيخ محمد علي خلف الحسيني، ونقله عنـه الـشيخ عبـد الـرحمن حـسن حبنكـة الميداني في كتابه قواعد التدبّر الأمثل[112].

والسور التي فيها آيات التحدّي على حسب تاريخ نزول السور عنـده هـي: يـونس، والإسـراء، وهـود، والطور، وكلّها مكية، ثم البقرة، وهي مدنية، ثم نعقب بما نراه مناسباً.

- قال تبارك اسمه في سورة يونس:
- ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (38).

---

[109] **فكرة إعجاز القرآن**، 165.

[110] **مناهل العرفان**، 145.

[111] ما سبق الموضع نفسه، و**قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، 178.

[112] حبنكة، **قواعد التدبّر الأمثل**، 178 فما بعد، ومصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، 36 فما بعد.

- وقال عزّ وجلّ في سورة الإسراء: (**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**)(88).
- وقال تقدست ذاته في سورة **هود :(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) (13).
- وقال تباركت أسماؤه في سورة الطور: (**أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**) (33–34).
- وقال جل جلاله في سورة البقرة: (**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) (23).

ومن وراء استعراض هذه الآيات المباركات، مرتبة على حسب تاريخ النزول الذي اجتهد فيه بعض علماء القرآن الكرام؛ توضحت لنا الأمور الآتية:

- أن ترتيب مراحل التحدي من الأعم إلى العام، ثم إلى الخاص والأخص؛ ليس عليه دليل، والصواب أن تحدي المشركين وأهل الكتاب، كان يقع على حسب الحالة التي وقع فيها النزاع بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و خصومه هؤلاء.

مع الإشارة إلى أن الآيات كلها تتحدث عن حوارات مع مشركي قريش ما عدا سورة البقرة، فهي خطاب للناس جميعا، فكأن آيات التحدي تتحدى العرب ابتداء، وتتحدى من ورائهم الناس جميعا، والله تعالى أعلم.

- آية التحدي التي في سورة البقرة تختلف من حيث الأسلوب عن غيرها من الآيات، حيث جاء الأسلوب فيها " فأتوا بسورة من مثله " فكلمة (من) لم تذكر إلا في هذه الآية، وذلك أن التحدي في الآيات السابقة كان المخاطب به العرب، والعرب كان البيان بضاعتهم والبلاغة سجيتهم، لكن هنا المخاطب الناس جميعا عربهم وعجمهم، فجاءت كلمة (من) ليدل هذا الحرف على التبعيض، لأن التحدي للناس جميعا، ولا يعقل أن يتحدى الناس جميعا بالبيان وحده، إنما هو تحد عام عموم المخاطبين به، وهذا يؤكد أن وجوه الإعجاز متعددة، وأن القرآن الكريم معجز من حيث بيانه، ومن حيث تشريعه، ومن حيث ما فيه من حقائق علمية وكونية، ومن حيث هذه الحيثيات وغيرها[113].

[113] فضل حسن عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، 32–33.

المسألة الرابعة: خلاصة أقوال العلماء القائلين بالصرفة

هذه المسألة بمنزلة تلخيص مسألة الصرفة، التي يعقبها تلخيص أدلة القائلين بها؛ تمهيدا للرد عليها وتفنيد تلك الأدلة من وجهة نظر رافضيها.

إن الذاهبين الى القول بالصرفة انقسموا على ثلاثة اقسام:

1- فقسم ذهب إلى أن (النظم القرآني) ليس معجزا، وإنما المعجز هو الصّرفة، بحيث ان الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن، وهؤلاء فريقان:

- الأول: هم الذين ذهبوا إلى أن الله تعالى سلب من العرب مقدرتهم على المعارضة ولو لم يسلبها؛ لكان بإمكانهم معارضة القرآن، فليس في القرآن من الأساليب ما ليس يعرفها العرب.
- الثاني: هم الذين ذهبوا إلى أن الله تعالى صرف قلوب العرب وهممهم عن المعارضة مع وجود جميع الإمكانات لديهم، ولولا صرف قلوبهم؛ لكان من الممكن معارضة القرآن.

2- وقسم ذهب إلى أن النظم القرآني هو المعجز الأعظم، ولكنه ليس الوجه الوحيد للإعجاز، فهناك وجوه عديدة أخرى منها (الصرفة) بحيث صرف الله العرب عن معارضة كتابه.

3- وقسم ذهب إلى عدد من وجوه البيان من النظم والأسلوب والمعاني، وقالوا: ان الصرفة وجه ضعيف ولكن لا حرج من القول به على سبيل التنزل في الجدال؛ لان المجادلين فئات وأصناف من الناس، وليس كل المعاندين يحسنون تلمس مواضع الإعجاز البياني، ولا حرج من القول بالصرفة، ما دام يؤدي إلى إثبات النبوة، وصدر ما يصدر عن النبي صلى الله على آله وسلم بعد ذلك.

وحين نناقش مسألة (الصرفة) يجب أن يتناول نقاشنا جميع هذه المذاهب حتى نكون أوضحنا جميع جوانب المسألة بغية الوصول إلى الرأي الصواب.

المطلب السادس

ردود العلماء على مذهب الصرفة

كثيرة هي الردود التي سطرها العلماء والباحثون دفعاً في صدر مذهب "الصّرفة" والقائلين بها وبعضها يصلح رداً، وبعضها يظهر فيه التكلّف، وأكثرها تكرار لما قاله المتقدمون.

ورأيت الباحثين من المتقدمين والمتأخرين، قد استدلوا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، مثلما ساقوا كثيراً من الأدلة العقلية، وألزموا الذاهبين الى الصّرفة بمخالفة الإجماع تارة، ومخالفة السنة تارة، ومخالفة القرآن تارة، ومخالفة الواقع التاريخي أيضاً.

وعندما وصلت إلى هذا الموضع من البحث؛ ازددت قناعة بأنّ الذاهبين الى "الصّرفة" والرافضين لها، ما دفعهم إلى ذلك، إلا حبّ هذا الدين، والدفاع عن القرآن الكريم، وقد ظهر لي أن ردود الأفعال على

كل جديد؛ تبدأ عنيفة شديدة، ثم تهدأ تدريجياً، ثم ينظر إلى المسألة المستنكرة من وجهة أخرى، وقد تغدو محترمة عند كثيرين من أتباع المدرسة التي أنكرها أساطينها من قبل.

المسألة الأولى: الأدلة المعارضة للصرفة من القرآن الكريم

- قال تعالى في سورة العنكبوت: (**وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) (50–51).

واضح أن الآية الأولى تتضمن طلب الكافرين معجزات، وأن الذي أُمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتبرأ من مقدرته عن إنزال المعجزات، وأنها بيد الله تعالى، وأن مهمة الرسول إليهم هي النذارة البيّنة الواضحة. وواضح أن الآية الثانية تتضمن استفهاماً تعجبياً إنكارياً (أو لم يكفهم؟) فالقرآن معجزة كافية يُستغرب ممن لا يكتفي بها، وآيتها في تلاوتها، وتلاوتها لإسماعهم إياها، بما توحيه هذه التلاوة من رحمة بهم، وما تتضمنه من معان سامية تذكّر بالخير والبرّ والتقوى.

فسياق الآية يدل على أن القرآن يقوم مقام سائر المعجزات التي يطلبونها، إضافة إلى تضّمنه الذكرى والرحمة.

والصّرفة تقول: إن الإعجاز بها، وليس بالقرآن الذي يتلى عليهم. قالوا: فالصرفة نقيض هذه الآية[114]، وكل ما يناقض شيئاً من القرآن فهو باطل!

قلت: إذا نُفي الإعجاز عن القرآن الكريم، وأُثبت للصرفة؛ فتكون الصّرفة مناقضة للقرآن الكريم.

أما إذا قيل: إن الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم قائم، ولئلا يحدث تشويش عليه، صرف الله نفوس الناس عن المعارضة، فتكون الصّرفة هنا رديفاً للإعجاز، ويمكن أن قال: إنها لطف إلهي أحاط بالمؤمنين لئلا يشوّش عليهم المعارضون.

- وقال الله تعالى في سورة الزمر: (**الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعّر منه جلود الذين يخشون ربّهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله! ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله؛ فماله من هاد**) (الزمر: 23).

فالقرآن أحسن الحديث، وهذا نصّ في أنّ أي حديث لأي بشر دونه في الحسن، وجميعا متشابه في الحسن حتى حين تذكر فيه القصص، وتثنى المرة تلو المرّة، فجميعها متشابهة في الحسن، وإن اختلف أسلوب العرض واضطراب الجلود واهتزازها من شدّة التأثر بجمال إيقاعه وأثره على الروح

---

[114] **مباحث في إعجاز القرآن**، 64.

والمشاعر الإنسانية، فمعجزة ذاتية أخرى للقرآن الكريم، ليست لأي كلام آخر سواه، فهو وحده الذي يثير الخشية، ثم يورث الطمأنينة للنفس المؤمنة. والقول بالصرفة لا يجعل للقرآن الكريم هذا الإعجاز، بل يجعل الإعجاز لها دونه[115].

قلت: إنما يصّح هذا الكلام، ويتوجّه على من ينفي الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم، أما من يثبت الإعجاز الذاتي البياني، ويثبت أثره الإيماني القويّ، ويثبت وراء هذا الصرفة وجهاً من وجوه الإعجاز المصاحبة للقرآن فتنتفي المعارضة، والله أعلم.

- وقال تبارك اسمه في سورة الإسراء: "**قل: لئن اجتمعت الإنس والجّن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)** (87).

وجه دلالة الآية على بطلان الصرفة أنها تتضمن خبرا يقرر أن الثقلين إذا اجتمعوا وتناصروا على الإتيان بمثل هذا القرآن فإنهم عاجزون عن ذلك، وهذا الخبر يحتوي على تحدّ ونفي، وإنما يصح أن يُتحدّى من يأتى منه التحدّي وذلك بأن تنتفي كل الموانع التي تحول بينه وبين قيامه بالتحدي[116].

فإذا كان الله تعالى قد سلبهم القدرة على التحدّي، فيكون قد أوقع أمران:

- الأول: أنّ الله أعجزهم ثم تحدّاهم، وهذا عبث يتنزه عنه الباري تعالى.
- الثاني: أن التحدي إنما يصبح ذا معنى إذا كان مع الأقوياء، وتحدّي الضعفاء عجز!

فإذا اجتمع أذكياء الإنس وشعراؤهم وخطباؤهم وأدباؤهم وعلماؤهم، واجتمع معهم من الجنّ أقوياؤهم القادرون على أن يأتوا بمثل عرش بلقيس في مدّة زمنية وجيزة؛ ليحضروا كل كتب الأدباء والعلوم المعينة على التحدّي؛ فمثل هذا التحدّي يكون المتحدّي معه قوياً، ومنتصراً على المتحدّين مع امتلاكهم سائر قواهم.

وصَرف الناس ظاهراً بتعطيل قواهم، وسلب علومهم، أو باطناً بصرف هممهم ورغباتهم، يكون التحدي بهذا الصَرف، لا بالقرآن... بينما دلالة الآية ظاهرة على التحدّي به.

قال الخطابي في رسالته: "وذهب قوم إلى أن العلّة في إعجازه الصّرفة. أي: صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات؛ صار كسائر المعجزات...

قالوا: وليس ينظر في المعجزة إلى عِظَم حجم ما يأتي به النبّي، ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجاري العادات ناقضاً لها، فمهما كانت بهذا الوصف؛ كانت آية دالّة على صدق من جاء بها.

---

[115] **مباحث في إعجاز القرآن**، 65، **والمعجزة الكبرى**، 61.

[116] **نظرية إعجاز القرآن**، 76، **البيان**، 83، **والإعجاز البياني**، 52 فما بعد.

وهذا أيضاً وجه قريب، إلا أنّ دلالة الآية تشهر بخلافه، وهي قوله سبحانه: (**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن؛ لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**"[117] فأشار في ذلك إلى أمر طريقُه التكلّف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها؛ لا يلائم هذه الصفة، فدلّ على أنّ المراد غيرها، والله أعلم"[118].

- وقال الله تعالى في سورة البقرة :(**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا؛ فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله، إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا؛ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت لكافرين**) (23–24).

وجه دلالة الآية على نفي الصرفة أنّ التحدي كان بطلب تأليف سورة من القرآن، ومنحهم أن يستعينوا بمن يظنون لديه القدرة ممن يشهدونه ويشهدهم، أخبرهم بأنهم لن يستطيعوا ذلك البتة زيادة في تيئيسهم وتبكيتهم، عسى أن تستفيق ضمائرهم تحت مقارع التبكيت والتحقير!

ولو كان التحدي بصرفهم عن الإتيان بذلك؛ لما جاز للعظيم أن يتحدى عبده بشيء سلبه القدرة عليه وكان مناسباً أن يقول له: إني بقدرتي سلبتك القدرة والعلوم، ولما كان للتحدي بالقرآن معنى.

هذه هي الآيات التي يسوقونها أدلة على نفي القول بالصّرفة.

المسألة الثانية: الأدلة المعارضة للصّرفة من السنة الشريفة.

إن من المسلّم به عند العلماء أن الحديث الذي توافرت له شروط الصحة يجب العمل بدلالته، ولو كان غريباً، وليس في الباب غيره.

وقد ذكر العلماء عدداً من الأحاديث التي تحكي سبب إسلام عمر بن الخطّاب، وسعد بن معاذ، والطفيل الغفاري، وتحكي من جهة أخرى أسباب نزول بعض الآيات القرآنية التي تنطق بأن بعض المشركين قد أخذ بسماعه القرآن، لكنه (**فكّر وقدّر، فقتل كيف قدّر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر**) [المدثر: وبعضهم قال:(لا تسمعوا لهذا القرآن، والغَوا فيه).ولا ريب أن لها سبب نزل من السنة.

بيد أن أكثر هذه الأحاديث يدلّ على أن القرآن ذو أثر نفسي، ولا يدلّ على أنه معجزة الإسلام. ويكفي في هذا المقام أن أسوق الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم عن النبيّ صلى الله عليه وآله

---

[117] الإسراء: 88.

[118] **بيان إعجاز القرآن**، 76، **البيان**، 83، **والإعجاز البياني**، 52 فما بعد.

وسلم أنه قال: (**ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**)[119].

لا يختلف شارحوا هذا الحديث أن المراد بمعجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا هو القرآن الكريم. قال النووي: " معجزة نبينا مع القرآن المستمرّ إلى يوم القيامة، مع خرق العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، وعجز الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار، مع اعتنائهم بمعارضته، فلم يقدروا وهم أفصح القرون، مع غير ذلك من وجوه إعجازه المعروفة"[120].

وقال الحافظ ابن حجر: " معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمرّ عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء ممّا أخبر به أنه سيكون، يدلّ على صحة دعواه"[121].

وقال في موضع آخر يستوفي شرحه: " القرآن أعظم المعجزات، وأفيدها، وأدومها، لاشتماله على الدعوة والحجّة ودوام الانتفاع به إلى آخر الدهر، فلما كان لا شيء يقاربه، فضلاً عن أنه يساويه؛ كان ما عداه بالنسبة إليه كأن لم يقع"[122].

قلت: إذا نظرنا في الأبحاث التي تناولت الجانب البياني في هذا العصر من لون الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي، الى يومنا هذا؛ لوجدنا عشرات المؤلفات والأبحاث التي اكتشفت من عناصر الجمال البياني ما لم يخطر للمتقدمين على بال، وخاصة دراسات الرافعي، وسيّد قطب، والدكتور محمد دراز، والدكتور محمد سعيد البوطي وغيرهم عديدون. وإذا نظرنا في الأبحاث والدراسات التي تناولت الجانب العلمي؛ لوجدنا مئات المؤلفات والأبحاث التي تحتاج إلى مزيد من التوثّق، واختصار جميعها في موسوعة علمية مختصرة، لتترجم إلى لغات العالم؛ فهي أعظم سلاح في تبيين عظمة هذا القرآن العظيم، وبالتالي أحقيّة هذا الدين الحنيف بقيادة حياة الإنسانية.

فهذا الحديث كما قال الحافظان النووي وابن حجر وغيرها عَلَم من أعلام النبوّة، وإخبار عن الغيب المستقبلي الذي تكشّف منه الكثير في هذا العصر.

---

[119] تقدم تخريجه في خطبة البحث هامش 1.

[120] النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، 364/2.

[121] **فتح الباري**، 10/9.

[122] ما سبق، 305/13.

المسألة الثالثة: الأدلة العقلية المعارضة للصّرفة.

رغبة مني في تخفيف حدّة ردود الفعل في الحوار والمعارضة، رأيت أن أسوق هذه الكلمة للعلامة الشيخ محمد أبو وهرة، حيث يقول: " مهما يمكن من بطلان هذه الفكرة –الصرفة– فقد أدّت إلى إنشاء علوم البلاغة في ظلّ القرآن، فاتجّه الكاتبون إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين المنزّل من عند الله الحكيم قرآناً عربياً، فكان هذا الباطل سبباً في خير كثير، وكما يقول المثل السائر (ربّ ضارّة نافعة)! "[123].

- **الدليل الأول:** دلالة آية الإسراء تشهد بخلاف الصرفة –كما يقول الخطابي– لأنها أشارت إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها، لا يلائم هذه الصفة،فدل على أن المراد غيرها.[124].
- **الدليل الثاني**: قال القاضي عبد الجبّار: (المنع والعجز لا يختص كلاماً دون كلام، وأنه لو حصل ذلك بألسنتهم لما أمكنهم الكلام المعتاد، والمعلوم من حالهم غير هذا).

– **الدليل الثالث**: قال القاضي عبد الجبّار: (لو قلنا: إن المعجز صرف الله إياهم عن المعارضة، لم يوجب كون القرآن معجزاً، وكان يجب أن يكون المعجز منعهم من فعل مثله، ومن سلك هذا المسلك في القرآن، يلزمه أن لا يجعل له مزّية البتّة، على أن ذلك يبطل بعض القرآن، لأنه الله تعالى يقول: (**قل: لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**) ولو كان الوجه الذي تعذّر عليهم المنع، لم يصحّ ذلك –يعني التحدّي– لأنه لا يقال في الجماعة إذا امتنع عليها الشيء: إن بعضها كان لبعض ظهيراً، لأن المعاونة والمظاهرة إنما تمكن مع القدرة، ولا تصّح مع العجز والمنع.

وهذا يبيّن أنهم لو كانوا قادرين متمكنين، لما أمكنهم أن يأتوا بمثله، ولا يكون ذلك إلا لمزّية القرآن"[125].

- **الدليل الرابع:** قال القاضي عبد الجبّار: (فإن قال – المعارض–: لو كانوا يقدرون على المعارضة، وانصرفت هممهم، أكان يكون – ذلك الانصراف– دلالة النبوة؟

---

[123] **المعجزة الكبرى**، 62.

[124] الخطابي، **بيان إعجاز القرآن** ، 23.

[125] **المغني**، 16/322–323، وقال مثل هذا القاضي الباقلاني في إعجازه، 54.

قيل له: لو صحّ ذلك؛ لكان يدلّ على نبوّته —صلى الله عليه وسلم– لأن العادة لم تجر بانصراف دواعي الجمع العظيم عن الأمر الممكن، مع التقريع والتحدي، والتنافس الشديد.

وكذلك: فلو أنه تعالى شغلهم عن تأمل حال المعارضة؛ لكان ذلك معجزاً، لكنّا قدمنا أن ذلك يوجب قلب الدواعي، وقلب المعلوم، وهذا بعيد!

لكنّه إن صحّ وتأتّى؛ فلا يمتنع أن يكون دالاً على النبوّة، وإنما ينكر كونه دلالة، لأنه كالمضادّ للوجه الذي بيّنا به أن للقرآن دلالة، فإذا صحّ ما قلنا؛ فلا بدّ من أن يبطل هذا الوجه"[126].

- **الدليل الخامس:** قال القاضي عبد الجبّار:" فإن قال: جوّزوا اجتماع الوجهين جميعاً، لأنه غير ممكن أن ينصرفوا عن المعارضة لأمرين:
- أحدهما: صرفة لدواعيهم.
- والآخر: علمهم بتعذّر المعارضة؛ لأنهما لا يتنافيان؟

قيل له: إنهما وإن لم يتنافيا على هذا الوجه؛ فإنهما على الوجه الذي قدّمنا يتنافيان؛ لأن المخالف يزعم أنهم عدلوا عن المعارضة مع إمكانها؛ للصّرفة التي بيّنها.

ونحن قلنا: عدلوا عنها لتعذّرها، وعلمهم بذلك من حالها، فلا بدّ من التنافي على هذا الوجه، فأما إذا لم يقدّر الأمر هذا التقدير؛ فغير ممتنع على بعض الوجوه اجتماع الأمرين:

- بأن يتركوا المعارضة، لمعرفتهم بتعذّرها.
- ولأن سائر الدواعي صرفوا عنها.

فيكون أوكد في باب الانصراف؛ لأنه قد كان يجوز أن يعلموا تعذّر ذلك، ويأتوا بما يتوهم أنه معارضة فلأجل انصرافهم عن سائر الدواعي؛ عدلوا عنها من كلّ وجه"[127].

– الدليل السادس: **قال الباقلاني**:" فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟

وهلاّ قلتم: إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة، وتوجّه من هذه الطرق الغريبة؛ كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصّرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع أو تقصر دواعيه دونه، مع قدرته عليه؛ ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجّة؛ لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين؛ لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك؛ قدر على ضّم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية والسورة.

---

[126] ما سبق، 16/ 326.

[127] **المغني**، 326/16.

فالجواب: أنه لو صحّ ذلك؛ صحّ لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع بيت؛ أن ينظم القصائد ويقول الأشعار، وصحّ لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة؛ نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن...

على أنه لو كانوا صُرفوا – على ما ادّعاه– لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين، عمّا كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف؛ لأنهم لم يُتحدّوا إليه، ولم تلزمهم حجّته!

فلّما لم يوجد في كلام من قبله مثله؛ عُلم أنّ ما ادّعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان"[128].

- **الدليل السابع**: عقد القاضي الجرجاني في الشافعية التي جعلها في وجوه إعجاز القرآن فصلاً ترجمه بقوله: (في الذي يلزم القائلين بالصّرفة) ويحسن نقله بتمامه مع شرح بعض المستغرب منه، لأنه كلّه نافع مانع! لكنني أقتبس منه مقطعين فقط.

قال رحمه الله تعالى:" إن من حقّ المنع إذا جُعل آية وبرهاناً – ولا سيما للنبوة– أن يكون في أظهر الأمور، وأكثرها وجوداً، وأسهلها على الناس، وأخلقها أن تبين لكل راء وسامع: أن قد كان منع! لا أن يكون المنع من خفيّ لا يعرف إلا بالنظر، إلاّ بعد الفكر، ومن شيء لم يوجد قط، ولم يُعهد، إنّما يظن ظنّاً أنه يجوز أن يكون، وأن له مدخلاً في الإمكان إذا اجتهد المجتهد!

وهل سُمع أن نبياً أتى إلى قومه فقال: حجّتي عليكم، والآية في أنّي نبيّ إليكم؛ أن تمنعوا من أمر لم يكن منكم قطّ، وليس يظهر في بادئ الرأي، وظاهر الأمر أنكم تستطيعونه، ولكنه موهوم جوازه منكم إذا أنتم كدوتم أنفسكم، وجمعتم مالكم، واستفرغتم مجهودكم، وعاودتم الاجتهاد فيه مرّة بعد أخرى!؟

أم ذلك لا يقوله عاقل، ولا يُقدم عليه إلا مجازف لا يدري ما يقول؟...

فقد بان أنهم بذلك قد أوهوا قاعدتهم، وقدحوا في أصل المقالة، من حيث جعلوا الآية والبرهان وعلم الرسالة والأمر المعجز للخلق في المنع من شيء لم يوجد قطّ، ولم يعلم أنه كان في حال من الأحوال!

وليس بأكثر من أنّ ظنّ ظنّاً أنه مما يحتمله الجواز ويدخل في الإمكان، إذا أُدمن الطلب، وكثر فيه التعب، واستنزفت قوى الاجتهاد، وأرسلت له الأفكار في كل طريق، وحُشدت إليه الخواطر من كل جهة، وكفى بهذا ضعف رأي وقلّة تحصيل!"[129].

---

[128] الباقلاني، **إعجاز القرآن**، 52–53.

[129] الجرجاني، **الرسالة الشافية الملحقة بدلائل الإعجاز**، 621–622.

قال القاضي: " وهذا فصل أختم به: ينبغي أن يقال لهم — يعني القائلين بالصرفة-: ما هذا الذي أخذتم به أنفسكم، وما هذا التأويل منكم في عجز العرب عن معارضة القرآن، وما دعاكم إليه، وما أردتم منه؟

أأن يكون لكم قول يُحكى، وتكونوا أمّة على حدة، أم قد أتاكم في هذا العلم لم يأت الناس؟

فإن قالوا: أتانا فيه علم!

قيل: أفمن نظر ذلك العلم، أم خبر؟

فإن قالوا: من نظر!

قيل لهم: فكأنكم تعنون أنكم نظرتم في نظم القرآن، ونظم كلام العرب، ووازنتم فوجدتموه لا يزيد إلا بالقدر الذي لو خُلّوا والاجتهاد وإعمال الفكر، ولم تفرّق عنهم خواطرهم عند القصد إليه والصمد له، لأتوا بمثله؟

فإن قالوا: كذلك نقول!

قيل لهم: فأنتم تدّعون الآن أنّ نظركم في الفصاحة نظر لا يغيب عنه شيء من أمرها، وأنكم قد أحطتم علماً بأسرارها، وأصبحتم ولكم فيها فهم وعلم لم يكن للناس قبلكم؟

وإن قالوا: عرفنا ذلك بخبر.

قيل: فهاتوا عرّفونا ذلك! وأنّى لهم تعريف ما لم يكن، وتثبيت ما لم يوجد؟!

ولو كان الناس! إذا عن لهم القول؛ نظروا في مؤدّاه، وتبينوا عاقبته، وتذكروا ما وصية الحكماء، حين نهوا عن الورود، حتى يعرف الصدر، وحذروا أن تجيء أعجاز الأمور بغير ما أوهمت الصدور؛ إذاً لكفوا البلاء، ولعُدم هذا وأشباهه من فاسد الآراء..."[130].

وهذه أبرز الأدلة العقلية التي ساقها المتقدمون، ولم يأت المتأخرون بجديد، إلا في أسلوب العرض، وسوف أزين خاتمة هذا البحث المتواضع ببعض أقوالهم الجميلة.

خاتمة البحث

الحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله سادة الأنام، ورضي الله عن أصحابه القداة النظام.

أما بعد: فقد تجلّى لي في هذا البحث الوجيز؛ بعد أن خبرت مصادره، وتمرّست بأساليب المؤلفين، وظهر لي مواطن الاجتهاد، ومرابع التقليد وتراءى لي حقائق رغبة علماء المسلمين جميعاً بخدمة هذا

---

[130] ن.م.، 623.

الدين، رغم سوء ظنّ بعضهم ببعض، ورمي بعضهم بعضاً بالعظائم، إلى درجة الاتهام بالضلال والزندقة والكفر في بعض الأحيان، بسبب التعصّب المذهبي والنفاسة العجيبة بين علماء المسلمين!"[131].

والذي خلصت إليه بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث المتواضع النتائج الآتية:

1- إن كلمة المذهب الذي جُعل فيه الإعجاز عوضاً عن القرآن (الصَّرفة) بفتح الصاد وليس بضمّ الصّاد، ومن ذهب إلى غير فتح الصاد، فقد أخطأ، وقد ضبطها على الصواب شيخ أدباء هذا العصر الأستاذ محمود محمد شاكر في تحقيقه الرسالة الشافعية التي ألحقها بكتاب دلائل الإعجاز للجرجاني، لصلتها به[132].

2- إن نسبة الدكتور مصطفى مسلم قول واصل بن عطاء بالصرفة، لم أقف عليه لغيره، ولم يُشر إلى مصدر من مصادر العلم.

3- إن نسبة القول بالصرفة الى العلامة إبراهيم بن سيّار النظّام؛ لم يثبت عندي من وجه صحيح! وربما كان للصراع المذهبي دوره في الرغبة بتشويه صورة النظّام، وربما كان من ذهب هذا المذهب من تلامذته هم الذين نسبوه اليه؛ ليقووا بسمعته، حيث إن تلميذه الجاحظ نسب هذا المذهب إليهم لا إليه ونسب خصمه ابن قتيبة إليه القول بالإعجاز الذاتي للقرآن الكريم.

4- إنّ أكثر الناس ينفرون من كلّ جديد، ويثورون في وجه التجديد ويتّهمون المخالف للسائد الشائع في إطار المدرسة الفكرية، أو الفقهية الواحدة؛ بتهم شتّى أيسرها الكبر والغرور، حتى يصلوا باتهامه إلى الكفر والزندقة والضلال والبدعة! ودليل ذلك أن متقدّمي الأشاعرة شنعوا على القول بالصرفة غاية الشناعة، ثم قال ثمانية علماء من كبارهم بها؛ بدءاً من منتصف القرن الخامس للهجري.

5- إن القول بالصّرفة على معنى سلب القرآن الكريم ذاتية الإعجاز قول باطل معارض لآيات متعددة من القرآن الكريم، ومخالف للواقع التاريخي الذي يدّل بوضوح على أن العرب أسقط في أيديهم أمام تحدّي القرآن الكريم إياهم، وقد قالوا فيه: سحر، وشعر، وافتراء، وقول البشر، وهذا يعني أنهم التمسوا في أنفسهم العجز عن المعارضة له، ولم يُنقل عنهم أن صارفاً صرفهم من خارجه! لكن إذا نُظر إلى الصرفة على أنها انصراف ذاتي نتيجة إحساسهم بروعة القرآن، وانهزامهم أمامهم فهذا واقع حقيقي، لكنه انصراف لا صَرفة!

---

[131] ينظر في هذا أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، ص: 63.

[132] انظر **الرسالة الشافية** ملحقة **بدلائل**، 611 فما بعد.

وفي هذا المعنى يقول القاضي عبد الجبّار الهمزاني: (فالصحيح إذا ما قلناه من أنهم علموا بالعادات تعذّر مثله فصار علمهم صَرفاً لهم عن المعارضة، وداعياً إلى العدول عنه في بعضهم، وداعياً إلى الاستجابة في بعض ما رتبنا القول فيه.

فأما من لا يعلم تعذّر مثل القرآن، ممن لم يتقدم في الفصاحة، فغير ممتنع أن تكون له دواع إلى المعارضة أولاً، حتى إذا تعذّر عليه، وعلم عند ذلك اختصاص القرآن بمزيته؛ انصرفت دواعيه"[133].

6- تبيّن لي أن كبار العلماء من المعتزلة والشيعة والسنّة كلّهم يقولون بإعجاز القرآن البياني وإن اختلفوا في جوانب البيان المعجزة فيه؛ لكنهم جميعاً يقولون: إن ذلك متعذر على غير المتقنين لعلوم النحو والبلاغة بفروعها المتعددة، وهذا لا يحسنه إلا أفراد قلائل على الوجه الذي سيتبين به الإعجاز، فيجب البحث عن جوانب أُخر — وما أكثرها– في القرآن الكريم، لتطمئن نفس المسلم من جهة، ولتكون سبيل الدعوة الناجع في هذا العصر من مثل: الإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز التأثيري، وغير ذلك من ضروب الإعجاز، أو الدلائل على صحة مصدره الربّاني فالمقصود هو التدليل على إعجازه الذاتي، ومصدر الرباني الداعي إلى الإيمان به، والتزام تعاليمه.

7- تبيّن لي أن فضل الله تعالى لم يخصّ المتقدمين بما حرم منه المتأخرين، فقد رأيت كلام سيّد قطب ومحمد عبد الله دراز، ومحمد سعيد البوطي وغيرهم أعلى وأمتن وأوضح من كلام المتقدمين في الإعجاز الذاتي البياني فلو أضيف إلى ذلك عشرات المصنفات العظيمة في جوانب الإعجاز الأخرى؛ لتأكد لدينا أن الفضل الأدبي للمتقدم لتقدّمه، ولأنه يضع القواعد والأسس العلمية، وليس لتفوّق علمه على المتأخرين.

ولم أجد في المتقدمين من كتب مثل: " التصوير الفنّي في القرآن" و "مشاهد القيامة" لسيّد قطب! ولا مثل النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز، ولا مثل "روائع القرآن" للبوطي مثلاً.

وهذا يقودنا إلى ضرورة التحرّر من سلطان المتقدّم، والرهبة من مخالفته، مع المحبة والتقدير والاستغفار له.

هذا... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

---

[133] **المغني**، 325–326.

المراجع:

1) الأشعري، أبو الحسن. مقالات الإسلاميين. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: المطبعة المصرية، 1411هـ–1990م.

2) الأصفهاني، الراغب. مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق صفوان عدنان داوودي. دمشق: دار القلم، 1423هـ–2002م.

3) أنيس، إبراهيم وآخرون. المعجم الوسيط. القاهرة: د.م، د.ت.

4) الباقلاني، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. إعجاز القرآن. تحقيق صلاح عويضة. بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ–2001م.

5) البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح. تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز. بيروت: دار الفكر، 1419هـ–1998م.

6) البغدادي، عبد القاهر بن طاهر. الفرق بين الفرق. تحقيق لجنة إحياء التراث العربي. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1408هـ–1987م.

7) البلخي، أبو القاسم البلخي. فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة. تحقيق فؤاد السيد. د.د: الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1406هـ–1986م.

8) الجاحظ:

- حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ). تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة: الخانجي، 1390هـ–1979م.
- الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. د.م: دار إحياء التراث العربي، 1388هـ–1969م.

9) الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الحنفي. التعريفات. بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ–2000م.

10) الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز في علم المعاني. تحقيق محمد رشيد رضا. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

11) الجويني، عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف.

- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. تحقيق محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم. د.م: د.ن، 1369هـ–1950م.

- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية. تحقيق أحمد حجازي السقا. د.م: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت.

12) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي. كشف الظنون. بيروت: دار الكتب العلمية، 1413هـ–1992م.

13) الحمصي، نعيم. فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1400هـ–1980م.

14) الحموي، ياقوت. معجم الأدباء. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

15) الخالدي، صلاح عبد الفتاح.

- إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. عمّان: دار عمار، 1421هـ–2000م.
- البيان في إعجاز القرآن. عمّان: دار عمار، 1413هـ–1992م.

16) الخطيب، عبد الكريم. الإعجاز في دراسات السابقين. بيروت: دار الفكر العربي، 1974م.

17) الخفاجي، ابن سنان. سر الفصاحة. شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي. د.م: طبع محمد علي صبيح، د.ت.

18) دراز، محمد عبد الله. النبأ العظيم– نظرات جديدة في القرآن. د.م: دار القلم، 1404هـ–1984م.

19) الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة. تأويل مختلف الحديث. بيروت: دار الجيل، 1393هـ–1972م.

20) الرازي، فخر الدين.

- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب). بيروت: دار الفكر، د.ت.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تحقيق د. بكري أمين. بيروت: دار العلم، 1985م.

21) الرافعي، مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. بيروت: المكتبة العصرية، 1423هـ–2002م.

22) الرماني، الخطابي، والجرجاني. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام. القاهرة: د.ن، 1387هـ–1968م.

23) الزرقاني، محمد عبد العظيم. مناهل العرفان في علوم القرآن. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

24) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. البرهان في علوم القرآن. بيروت: دار الفكر، 1421هـ-2001م.

25) أبو زهرة، محمد. المعجزة الكبرى (القرآن). القاهرة: دار الفكر العربي، 1418هـ-1998م.

26) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. تحقيق محمد التونجي. بيروت: عالم الكتب، 1414هـ-1993م.

27) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر.

- الإتقان في علوم القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن. مكة المكرمة: دار الباز، وبيروت: دار **الكتب العلمية،** 1408هـ-1988م.

28) شرح المصطلحات الكلامية. إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلامية. إيران: مشهد، 1415هـ.

29) الشهرستاني، محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر. الملل والنحل. تحقيق محمد سيد كيلاني. لبنان: دار المعرفة، 1402هـ-1982م.

30) الصالح، صبحي. مباحث في علوم القرآن. د.م: دار العلم، 2002م.

31) أبو صعيليك، محمد عبد الله. ابن حزم وآراؤه في علوم القرآن والتفسير. عمّان: دار البشير، 2002م.

32) الطوسي، الخواجة نصير الدين. تلخيص المحصل، المعروف بنقد المحصل. بيروت: دار الأضواء، 1405 هـ- 1985م.

33) عباس، فضل حسن. إعجاز القرآن الكريم. عمّان: دار الفرقان، 1422هـ-2001م.

34) عبد الجبار، أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي. المغني في أبواب التوحيد والعدل. الجمهورية العربية المتحدة: مطبعة دار الكتب، 1380هـ-1960م.

35) العزب، محمد أحمد. الإعجاز القرآني من الوجهة التاريخية. بيروت: دار المعارف، د.ت.

36) العسقلاني، ابن حجر.

- الإصابة في معرفة الصحابة. تحقيق علي البجاوي. بيروت: دار الجيل، 1992.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. بيروت: دار الريان للتراث، 1986.

- لسان الميزان. تحقيق دائرة المعرف النظامية الهند. بيروت: مؤسسة الأعلمي للطباعة، 1406–1983م.

37) العلوي، يحيى بن حمزة. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

38) عمار، أحمد سيد محمد. نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم. القاهرة: د.ن، 1418هـ–1998م.

39) الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد. طبعة محمد علي صبيح. د.م: د.ن، د.ت.

40) الفيروزآبادي. القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت.

41) الفيومي، أحمد بن محمد بن علي. المصباح المنير. لبنان: مكتبة لبنان، 1987م.

42) الماوردي، أبو الحسن البصري. أعلام النبوة. تحقيق عبد الرحمن حسن محمود. مصر: مكتبة الآداب، د.ت.

43) مسلم، مصطفى. مباحث في إعجاز القرآن. دمشق: دار القلم، 1420هـ–199م.

44) مطلوب، أحمد. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. بيروت: مكتبة لبنان، 2000م.

45) أبو موسى، محمد محمد. الإعجاز البلاغي. القاهرة: مكتبة وهبة، 1405هـ–1984م.

46) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. قواعد التدبر الأمثل. دمشق: دار القلم، 1409هـ–1989م.

47) ابن النديم، محمد بن إسحاق أبو الفرج. الفهرست. بيروت: دار المعرفة، 1398هـ–1978م.

48) النووي، الإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف الدمشقي. المنهاج في شرح صحيح مسلم. الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1421هـ–2000م.

49) النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين. الجامع الصحيح. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1390هـ–1970م.

תקציר:

מדעני האסלאם היה להם הרבה דרכים כדי להוכיח את הנס של הקוראן, לכן היה להם דעות שונות. רובם אמרו שנס הקוראן נבע מתוכו, ולא מחוץ ממנו, אבל היה כמה מהם שאמרו שהנס נבע מסיבה חיצונית שקוראים לה (אלסארפה).

המחקר הזה בא להבהיר את נושא (הסארפא), הוכחות התומכים בה, ותגובת מדעני האיסלאם הדוחים אותה.